فضيلة الفاروق

لحظة لاختلاس الحب
وقصص أخرى

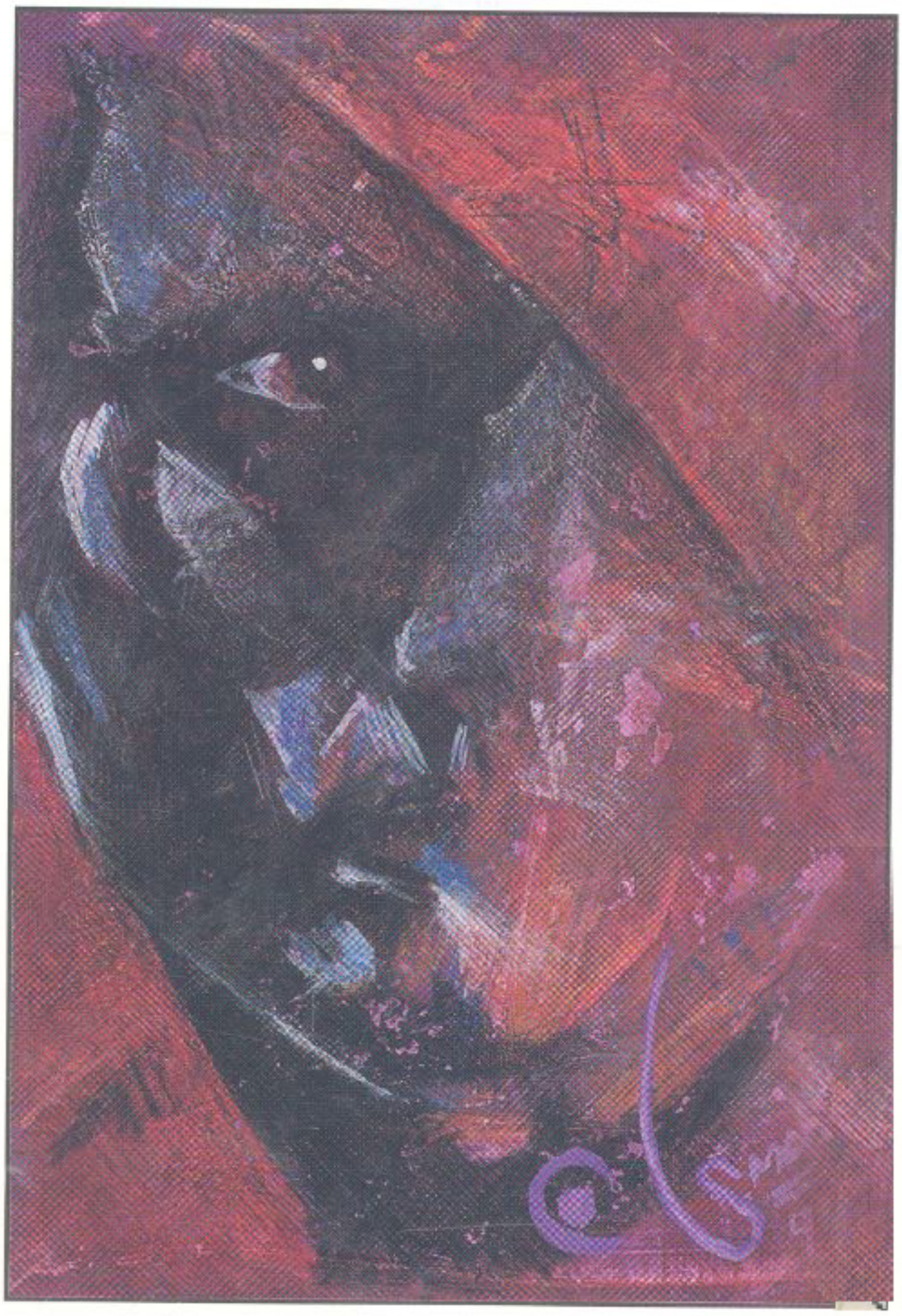

الفارابي

فضيلة الفاروق

لحظة لاختلاس الحب
وقصص أخرى

اعتذار مسبق

هذه مفرداتك يا وطني وقد غشتك.

فعذراً، لأنّ الكتابة عنك ما تزال مؤجلة

فضيلة

قسنطينة ـ 8 سبتمبر 1995

الكتاب: لحظة لاختلاس الحب

التاليف: فضيلة الفاروق

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ص.ب. ٣١٨١/١١- ت:٣٠١٤٦١- فاكس :٣٠٧٧٧٥

التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

لوحة الغلاف: الفنان الجزائري عيسى سماري

الطبعة: الأولى ١٩٩٧

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى صديق مفاجئ: پول جدع

إلى والديّ كثيرا

وإلى زوجي وليد

كلمة...

بقلم: زهور ونيسي(*)

وأنا أقرأ المجموعة القصصية «لحظة لاختلاس الحب» للقاصة الواعدة فضيلة الفاروق، شعرت وكأنني أولد من جديد... قرأت الصفحات، الصفحة تلو الصفحة دون توقف أو ملل.. لأعتقد في النهاية أنني لست من مواليد ذلك العام.. فأنا مولودة منذ آلاف السنين، أنا والمرأة الأولى الأزلية والمرأة الأخيرة الأبدية في تاريخ الجنس البشري. صيحتنا الأولى كانت واحدة، والجرح عبر الزمن لا يريد أن يندمل... وبين هذا وذاك أنا والأخريات تاء

(*) زهور ونيسي أول امرأة كتبت باللغة العربية في الجزائر، وهي أول امرأة تقلدت منصباً وزارياً في تاريخ الجزائر (1982)، وهي أول امرأة ترأس مجلة نسائية وما تزال تمارس الكتابة من قصة ورواية ومسرح.

تأنيث بدون جناحين.. في قفص من ذهب تارة، وأقفاص عائمة في صديد الزمن تارات أخرى؛ أكتشف فجأة أنني العمق الذي تنطلق منه الحقيقة، الغور الذي تاهت في غياهبه نقطة الضوء الأولى للإنسانية. وقررت، وحدي، أننا نحن النساء الحب والحياة والأرض، في كل الأزمنة الحرة والمقيدة.

لقد كتبت قبلك يا فضيلة، بخوف، وتكتبين أنت اليوم بحرية لا يغيب عنها الخوف! أكتب بأسلوب جيل، وتكتبين بأسلوب جيل آخر، عن هموم لا تزال واحدة وأهداف لا أراها قريبة أبداً، رغم العمر الذي يفصل بين كتابة وكتابة، فهل نحن الذين لا نتحرك؟ أم هو الميلاد الجديد؟

* * *

العمل الأدبي كل لا يتجزأ...

هذا موقف فنّي، وهذا اجتماعي، وذاك عقائدي، وكل ذلك في الحقيقة شيء واحد، نسيج متداخل، لا يفهم أحده دون الآخر.

لذلك يعتبر النقاد الاهتمام بجانب دون الآخر من

الأعمال الأدبية عملاً غير كامل لا يؤدي إلى الهدف في الكتابة نفسها..

إن الأدب كسائر الفنون التعبيرية الأخرى ليس إلا وسيلة لتشخيص موقف الفنان المبدع في الحياة. وقد نجحت الكاتبة في تشخيص موقفها من الحياة...

لقد تذكرت وأنا أقرأ القصة تلو القصة فكرة طفت على سطح ذاكرتي، فكرة كنت تلقيتها وأنا في مدارج الجامعة سنة 1966 وأنا أحضِّر ليسانس الأدب العربي، فكرة اقتنعت بها، وهي أن الناقد لأي عمل فنّي أدبي يجب أن يكون فناناً مرتين، وأديباً مرتين، حتى يتوصّل بصدق الى استشفاف الجوانب الابداعية الظاهرة للمبدع، والخافية عن المبدع نفسه؛ لذلك حاولت أن لا أقف عند التعابير والمعاني والشكل والأسلوب لأتجاوزها إلى عمق تريد الكاتبة أن تخرج منه هدفها ورسالتها إلى نفسها وإلى من حولها؛ لقد كانت الأديبة كصدفة لا تريد أن تطفو بقشور فارغة ميتة.. وكان لها ذلك.

* * *

هل هذا كل ما يمكن قوله عن مجموعة فضيلة الفاروق؟

بالتأكيد لا...

لأن ما يمكن أن يضاف إلى ملاحظتي السابقة والتي يغلب عليها طابع (الأنثوية Le Féminisme) هذا الطابع الذي لا أحبذه في كل الأحوال، قلت ما يمكن أن يضاف، هو أن بطلة قصص فضيلة، تبدو وكأنها تعيش في عالم خاص.. في جزيرة معزولة، وأنها لا تمرّ بما حولها إلا من خلال تداعيات متحكمة في الفكرة والنصّ. لقد آن الأوان للبطلة، وهي الشجاعة الجريئة، أن تنطلق من ذلك، لتغرق همومها مع هموم من حولها، وتدرك أن الحياة حبلى بنماذج بشرية أخرى، حبلى بالهموم دون توقف حتى آخر قطرة من المحبرة، مواضيع تستحق العرق والدمع والمعاناة والكثير الكثير من التفكير والحرية.

ولنكتب يا فضيلة حتى لا نموت.

الجزائر-القبة
15 أكتوبر 1995

زهور ونيسي

الغول مات

انتابتني الرّعشة، وانسكب السواد على الدنيا من السماء حتى سقطت أرضاً مغشياً عليّ، وحين عدت إلى وعيي بعد ما يقارب الساعة من الغياب عن هذا العالم، أعدت طرح السؤال بحذر، وجزء من وجهي أشعر به ساحة وغى لجيش من النملّ، أعدت السؤال بصيغة راوغت فيها الحقيقة، جذبت الخالة أم رابح وهمست لها بخوف «أين الغول؟» ولم أسمع منها كلمة، انفجرت دموعها كالشلال، وارتوت تضاريس وجهها المتعب بملوحة ألمها، ثم شهقت وابتلعت غمغماتها بقوة، وراحت تربت على صدري.

ـ مات يا أم رابح؟..

دموعها كانت نَفَساً شجاعاً لي لأطرح هذا السؤال بهذه الصيغة الجريئة.

لكنها لم تجبني، ظلت دموعها تجري غزيرة، وأنفاسها بين الحين والحين تتعثر بشهقة بكاء.

ـ مات الغول يا أم رابح...

لم أصدق...

كانت رجلاي ثقيلتين، كبلتهما المفاجأة، فقد كان بودي أن أركض في كل أروقة البيت، أن أفتش عنه في كل أركانه، في كل زواياه، عَلّني أجده مختبئاً في ركن ما، يطرق السمع لما نقوله من ورائه؛ أردت أن أقف، وألمس جثته باردة لا حياة فيها ولا صراخاً...

باردة، لا فرق بينها وبين قطعة أثاث من هذا البيت... بارذة، لا فرق بينها وبين سوطه الذي أحضره من تركيا خصيصاً لتأديبنا.

كان مقبض هذا السوط يشبه حية رقطاء، وكانت قبضتُه كالموت.

ـ كالموت يا أم رابح، كان مخيفاً كالموت، فلِمَ تبكينه كل هذا البكاء؟

كان يدخل كل مساء بطوله الذي لا انحناء فيه،

بضخامته المفرطة، يبرم شاربه الشديد السواد، وابتسامته الخبيثة لا تفارق كل ملامح وجهه، يتقدم من أم رابح ويرمي عند قدميها بكيس الخضروات واللحم والفاكهة، ويمازحها بأسلوبه العفن:

ـ خذي يا أم اللعين، واصنعي لي عشاءً كعشاءات الملوك، واطعمي نفسك، إنك تشبهين فزاعة طيور... يتركها في المبطخ، ثم يتوقف في ردهة البيت برهة من الزمن حتى يخيل إلينا نحن نساؤه الأربع أنه خرج أو أنه نام في قاعة الضيوف، لكنه فجأة يفتح علينا الباب، ويبدأ في قرص هذه، وضرب تلك، وشتم الأخرى، ويصرخ فينا جميعاً:

ـ تتّفِقن عليّ بالشر يا حطبات جهنم... تتفقن عليّ يا ضرات النحس...

ونحن نصرخ ونقفز في أركان الغرفة، ثم تهرول الأخريات نحو غرفهن، وأبقى أنا أمامه. ينحني العملاق عليّ ويغرس نظرته الحادة في بؤبؤ عيني، ويقول لي بصوت خافت:

ـ أنت رأس الأفعى يا قارئة القرآن، لقد كُنّ

كالنعاج في بيتي، وحين تزوجتك نفثت السم في رؤوسهن الشبيهة بالبطيخ... سأؤدبك،

ضربة، اثنتان، ثلاث... ثم لا ينتبه لنفسه وهو يخلع عني ثيابي، وينتهي إلى الانقضاض على لحمي، العنق أولاً ثم الكتفان، ثم النهدان... ثم الضياع على كل مساحات جسدي...

ـ مات يا أم رابح...

ماتت يداه، خمد صوته للأبد، وانطفأت شعلة عينيه من هذا البيت القديم القديم،

ـ مات يا أم رابح...

مات وانهارت كل أسواره التي صنعها حولنا.

كنت ما أزال ممدودة في الفراش، أتأمل دموع أم رابح، والبيت الخالي من الغول. وحين خاطبتني رهيفة زوجته الثانية:

ـ لن أستطيع العيش بدونه...

وظلت صامتة. شعرت بالرغبة لمواجهتها:

– مغفلة!، ولكني لم أفعل.

ـ كلنا مغفلات!

أنا الأخرى، لم أتصور بعدُ كيف سأعيش بدونه، بدون زمجراته، بدون قهره، بدون ضغطه، . . . لا . . . لم أتصور ذلك. ولم أتصور أنه سيغيب عني، أو ينتهي . . .

لم أتصور مساءات دون أكياس الخضار والفاكهة واللحم، ودون مزاحات العفن مع الخالة أم رابح.

مرت أيام . . . ولم أصدق ما حدث.

مرت شهور . . . وأنا، (وهُنّ)، نترنح وسط فضاء الحرية الجديد، والغول معلق في كل الغرف، يترصدنا من خلف البراويز الذهبية، يطرق السمع لحكايانا، ونحن نتفق عليه، نجتمع، ونوشوش لبعضنا في همس، نخرج خفية بعد أن نلتحف بحجاباتنا، وندخل خفية . . .

مرت شهور، ولم تعد (النعاج) توابع لكلامي، وانتهت اقتراحات (المفضلة) إلى طبلات ممزقة.

مات الغول في الحقيقة، مات هيكل المفضلة.

وكدت أختنق ذات صباح، فتحت عيني على زغاريد رهيفة كان العرس نائماً، كن يرقصن نصف عاريات، ورجال غرب يصفقون لهن، والغول ما يزال معلقاً على الجدران، وأم رابح تبكي في صمت، والغول لا يزمجر، تعوّد صمته، والسوط في ركن الصالة أفعى أنهكها السبات، السوط التركي، الغول، أنا، أم رابح والعرس القائم... لم أصدق ما أرى، لكنني صدقت أنّ الغول مات.

قسنطينة 25 مارس 1994

كل شيء سيء إلى الآن

مدخل:

«إن شيئاً ما لا يمكننا أن نواجه به العالم كما يجب هو قذارة الإنسان.

فالإنسان هو الحيوان الوحيد الأكثر قذارة، ليس فقط لأنه يجب أن يستحم باستمرار ليظل نظيفاً، ولكن لأن القذارة تسكن مخه».

□ ها هي ذي كل الأمور تأخذ شكلها المستدير، تبدأ من حيث لا نعرف بدايتها، وتنتهي من حيث لا نعرف نهايتها.

تستدير الأزمنة وتتداخل تماماً كخطوط الوجوه، والغمزات، والهمسات، وكل ما يثير المشاعر وخوالج النفس ويعكرها.

قبل أن ينهي إلقاء محاضرته، ألقى نظرة على ساعة يده ثم نظرة أخرى على طلابه، وقد تعودوا منه النكتة خلال حديثه، ولكنه اليوم جاء على غير عادته، طقس وجهه بارد وسماؤه غائمة.

كانت المحاضرة فاترة، وثقيلة، وقد شعر هو نفسه بالعلة التي أصابت لغته فازداد توتراً.

ـ يبدو أن الوقت داهمنا، انتهى لقاؤنا اليوم.

وشوشت الأشياء لبعضها، الدفاتر والأقلام والكراسي. انسجمت ضوضاؤها لتعلن الانصراف، حمل محفظة أوراقه وخرج.

مال أحد طلبته على صديق له وهمس له:

ـ أقسم أن الأستاذ عاشق.

فرد الثاني: ـ أُرَجِّح أنه حضر لتطليق زوجته!

يخرج صامتاً عادة، ولكنه هذه المرة تردد قليلاً قبل الخروج. نظر إلى طلبته وفكرة ما بداخله تحاوره، لم يترك لها مجالاً للظهور أغلق عليها المنافذ بعزمه وخرج.

ما يمكن أن يغطيه الوقار تفضحه امرأة.

وما يمكن أن تغطيه النكتة تفضحه امرأة أيضاً.

ها هو ذا اليوم صامت لشدة العجز عن رؤية ما حدث، يقف على مدافنه الكثيرة وهي تفتح ليخرج منها التتن والآسن والمستحيل عظاماً.

البارحة وقفتْ أمامه كعنقاء من زلال، أَسرَّت له بما حوى القلب نحوه.

وقبل البارحة كانت أجمل، وكانت مُسكرة كالنبيذ، وهي تتحدث عن نساء سبقنها في التعاسة والشهوة والطموح؛ بكت أمامه، وهنا كانت خيوط قلبه قد انفكت، وأضلاعه قد هوت.

قليلات هن النساء اللواتي يحسنّ البكاء.

تكلمت، وقبل أن تتكلم بهذا البهاء، كانت طالبته التي تحسن الإصغاء.

تكرر وجهها بين مدرج وآخر، بين صف وآخر، بين سنة وأخرى لم يفهم أهي طالبة من بين طلابه، أم مراهقة تلاحقه، وفي الأخير أدرك أنها الإثنتان معاً.

وما أجمل أن تكون الإثنتين معاً.

هو انحدر على درب الأربعين، وهي ترقص على هضبات عمرها المزهر، فما الذي كان سيفعله غير ما فعله؟

تغيب اليوم عن الصف، وشيء ما يقول أنه كل هذا العبوس له علاقة بهذا الغياب؛ هذا ما تردد في الصف على الأقل. تغيب، لا تعلم شيئاً عن عبوسه. ولا يعلم شيئاً عن الأسى الذي حل بها.

على جدران غرفتها برزت ثقوب كثيرة بعضها عيناه، وبعضها شفتاه تقذفان بالكلام، وبعضها أصابعه تبحث عن مواضع أنوثتها. في ركن لم يطله الضوء تجلس واجمة، تضم ركبتيها إلى صدرها وفي العينين اللغة جامدة.

كيف يمكن للخطاب أن يعيش وهذا الزمن صار الخطاب فيه طريقة متطورة لاستغفال الآخر؟

كيف تحول الشِّعْرُ إلى أقراص للتخدير، والأدب إلى رُخَص شرعية للدنس؟

وكيف تحول الأدباء وأساتذة الأدب إلى شطار كلام؟

لا شيء بامكانه اليوم أن يعيد ترتيب المعاني وجمال الكلمات وسط عيائها، لا شيء يمكنه أن يصحح تزاوج أخطائها بأخطاء الآخرين.

ها هم أبناء الخطيئة يرقصون أمامها في الغرفة، يحتفلون بفوزهم على الأمنيات السليمة؛ فبين الرغبة والواقع جسر من خشب قديم، وها هي النيّات الصادقة تقع من على الجسر لأن ثقلها بوزن الذهب، ولأن الجسر لم تعد تعبره سوى الهياكل الجوفاء وفزاعات القش.

حين نحزن فقط على أنفسنا تهون على الضمير زلاتنا، ولكن حزنها هي، عصارة اختيار خاطئ وفق معطيات زائفة؛ وحين بدأت بمواساة نفسها، قالت إنها ليست إلهاً، وليست ملاكاً، إنها آدمية، وكل ابن آدم خطّاء، ولكن أين أبواب التوبة؟

لقد ظنته باباً لتوبتها...

أوقدَ فيها لهيب الإعجاب، وهو يتحدث عن

العدالة والأخلاق وعما يجب أن يكون في المجتمع المعاصر.

في ركنها المظلم ما تزال صوره تتراءى لها مرتين؛ شامخاً كان في لقائها الأول به، صغيرة بدت أمامه، تتلعثم من شدة ما أحست به من رهبة. قدمت له معاني الاحترام، واختصرت لقاءها مخافة أن يكشف الصمت شيئاً ما لا ترغبه من نفسها.

قزماً صار في لقائها الأخير به، كانت قد صدقت أن في بيته تجتمع أجمل الأزمنة، فكرت أنها المرة ستجالس عنترة والمتنبي، ومحمود درويش، ستسمع «الست» وزرياب يعزف وستلمس بأصابعها الطرية الزهرة والمريخ والمشتري. من قال «أجمل الشعر أكذبه»؟

إن أجمل الكلام كله أكذبه، لهذا يصعد الساسة وباعة الكلام إلى القمم وينزل المستمعون إليهم إلى المزابل.

في ركنها المظلم تحسست آثار العفونة على صدرها وعنقها، أصابعه الخشنة مرت من هنا، شفتاه

المحملتان بماء الاشتهاء، لسانه الساخن، لسعات شواربه، رائحة عرقه، كان ذكراً...

ويح ذاكرة الأنثى كم هي دقيقة في تسجيل أي شيء يصدر عن رجل تجاهها.

ماذا لو ذهب أبعد من ذلك؟ ماذا لو ضغط أكثر على جسدها؟ ماذا لو مزق كل ما ترتديه؟ ماذا لو (توحشن) أكثر؟

كان على وشك أن يفعل كل ذلك، ولكن ما كان عليه أن يستعجل الأمور، هو الخبير بالنساء كان يعرف أن المرأة كالفاكهة لا يمكن أن تستوي تحت الأضواء الاصطناعية القوية، ولكنها امرأة ذكية. والمرأة الذكية يجب التعامل معها كالحديد الساخن، لذا استعجل في تذوق بعض طعمها ولم يكن ينتظر منها ذاك النفور، هي الواثقة من نفسها والقادمة إلى بيته بمحض إرادتها،

ما موقف رجل من امرأة تقبل دعوته لها إلى شقته الثانية، إلى خلوته، إلى وكره السري، غير هذا الموقف الذي لا يحتمل إبداء الكثير من وجهات النظر.

وما موقف امرأة من رجل يعيش بهدوء وسلام مع شخصه الثاني، ويدعو من تُكِنُّ له الحب والاحترام إلى العنوان الغلط. لم يكن مستاءً حين دفعته عن نفسها، فقد لاحقته طويلاً حتى بلغت موقع حميمياته، وقد تَعَوَّدَ من رائدات هذه الشقة الدور نفسه قبل أن يستسلمن له ويروين مازوشيتهن باللذة.

وحدهن العربيات لهن اعتقاد فريد أن المُثَل يمكن أن تكون رجلاً.

ووحدهم رجال العرب يحنون لبداوتهم حين يرون امرأة تعاملهم ببعض الاهتمام، ففجأة يلجأون إلى الأدوات البدائية للتعبير لأنها ما أتقنوه، فكل ظروفهم لم تكن طبيعية للتطور.

الحكاية أصبحت غير مسلية وقديمة.

هو ما يزال الأستاذ، أستاذ أدب.

هي حيث لا يصلها الضوء تتذكر ما انفصل عنها في وكره السري: شخصها الثاني.

بيروت، 4 ديسمبر 96

الحياة ليست جميلة فوق الشمس

أذكر أنني بكيت،

ثم لم أعد أرى الحروف. انبعث خطاب الذاكرة بتفاصيل صغيرة لعمر تقاسمناه معاً، فيما سقطت رسالتك من أثر الرجفة التي هاجمت يدي.

سمعتك تهمس لي: ـ أحضرت لك شيئاً طيباً. لا تغادري الصف لأعطيك إياه.

على يساري كنت تجلس دائماً، رمقتك بكثير من الفضول فابتسمت، بينما كتمت سعادتي، كنت بارعة في استدراجك إلى محبتي، فهل تراني قتلتك، وقتلت نفسي بسبب هذا الاستدراج؟

بين تلك الأيام، وهذه التي ابتلعها الآن كأقراص شديدة المرارة، كان الصبا قد ركض نحو النهاية، والشباب قد غرب باكراً كشمس الشتاء.

بيني وبين ذلك المقعد الذي كنت أراه على يساري يضم جسمك الصغير، وغرامياتك الصغيرة، مقعد ينوحك، وينوح كل ما كتبته لي من غرام، فما زلت أراك ثملاً بحضوري، تمسك بكل ما أقوله لك من كلام حتى وإن كان سيئاً لتغزل لي منه أفخر الغزل على الإطلاق، بصوتك الدافئ وحروفك الثقيلة، هل كنت تعرف أنك تصرف من الوقت كثيراً لتخترع الكلام الذي تظن أنه يعجبني، في الوقت الذي كنت أتنفس فيه صمتك وعينيك، وأصاب بالدوخة من شدة ما أحبهما وهما تقولان الشبق بشكل فظيع، وتلمعان كليلة صيف متشحة بالنجوم.

ليتني منحتك قُبْلَةً كثيراً ما تمنيتها، وكثيراً ما طلبتها بدون احتشام. أكان لأصول العفة والكرامة أن تكون بهذا التطرف تجاه الحب؟ لأعيش على عضة الندم على شفاه لم تجبك سوى بـ«لا».

تراك تذكرت شفتي وأنت تختار موتة «أنّا كرنين» تحت قطار فرنسي لا يدرك حتى الحقد التاريخي الذي بين مجتمعينا، ليعيدك قطعاً مشوهة في تابوت تضامنَ الإخوة في المهجر ليدفعوا ثمنه ويدفعوا ثمن عودتك

التي فاتك أن تخطط لها وأنت تقطع تذكرة سفرك إلى باريس ذهاباً فقط.

أذكر يومها كم صرت طفلاً، وكم بكيت بين يدي، رميت لي بكل ما لديك من مبررات لخوض مغامرة الهروب من أشباح الخوف، كما يرمي لاعب ورق خاسر بكل ما تبقى لديه من الصبر والأوراق.

قلتَ لي: «إن الوطن لم يعد وطناً»

ثم سألتني: «من يقرأ لي غيرك؟ تجار الترابندو[1] أم الموظفون الذين يلهثون وراء «الخبزة»[2]؟ إذا كان أكثر من جيل يختنق كلما استنشق رائحة الكلمات فما جدوى أن أبقى هنا، في بناية متسخة يملأها أطفال لا يملكون من صفة الطفولة سوى الأجسام الصغيرة، وما جدوى أن أكتب عن شعب أكثره يكتفي بقراءة العناوين، ويغض النظر عن دمائنا التي تغلي تحت هذه العناوين، ما جدوى وقوفي في فوهة شرهة لأرواحنا جميعاً كمثقفين وما يزال في داخلي الكثير مما يجب أن

---

(1) الترابندو: تجار السوق السوداء.

(2) الخبزة: لقمة العيش.

يُقال، سأقوله وأموت!» فما الذي قلته أيها المجنون؟

ابتلعتك التربة واختفت صورتك من الجرائد بعد يوم من المراثي التي ألفناها، ثم جاء الصمت الذي يسبق عاصفة موت أخرى بالتأكيد. وجاء صمتك أنت، أسود قاتماً، كتلك الليالي التي لا تحسن أن تحرك مشاعرك ولو بالكراهية تجاه ما يحدث في وطن كثيراً ما أحببته في كل مواسمه المخيفة، وفي كل فصوله الضاغطة على القلب، وفي كل تاريخه المحقون بالخيبات.

لماذا قررت أن تكتب لي؟

ولماذا قررت أن تموت قبل أن أستلم خطابك؟

أهذه أكثر الطرق حضارة لكتم أنفاس الرأي الآخر، أم لأنني آخر وأكثر من يجب أن يُعاقب؟

كتبتَ بلون مغاير «هل تعرفين أن الجزائر عشيقةٌ عنكبوت، تتلذذ بالتهام عشاقها فيما هم في قمة نشوتهم، وهم يمارسون حبهم معها؟ هل تعرفين أنها دموية أكثر من غيرها من الجميلات؟ فمن سيفوز بها وقد أدمنت الفرجة على الحرب وعلى الدماء؟ أو من

سيفوز بها وقد أدمنت القلق والضجر أكثر من الهدوء؟ حتماً هم رجال القتال!

أما نحن (المخنثين) بالنسبة إليها، المزهوين بأقلامنا وأيدينا الناعمة، وأشعارنا، وأحلامنا التي تشبه الفراشات فلا نَتناسب وأهواءها، لذا فهي لا تكترث حين نُصفَّى كالشياة الجرباء، ولا حين يجرفنا المنفى إليه، أتظنين أنني اخترت منفاي عن حب؟

«باريس مدينة تخلو منك وهذا يكفي لأن تكون مدينة لا تصلح للحياة».

بكيتكَ.

بكيتُ ما كنت أتمسك به من تقاليد الهباء.

يوم واجهتك بالرفض ما عرفت أنني انضممتُ إلى كل الأشياء الجميلة التي لم تستوعب طريقة حبك.

تأخرت لأدرك أنك اعتدلت في كل شيء، وتطرفت في حبنا نحن الثلاثة: أنا والوطن والكتابة، وكلنا حين اجتمعنا صرنا محنتك التي قادتك إلى الموت.

في بداية رسالتك كتبت لي:

«لو تعلمين كم صار معطفي ثقيلاً من شدة ما أمطرت، أو من كثرة ما مشيت تحت المطر... اشتهيت باريس مشياً، أدهشتني في أول لقاء.

أدهشتني هذه العاهرة الثقيلة المفاتن.

أدهشتني واجهات الكتب والثقافة.

«Bref, C'est le coup de foudre».

ـ ثم ماذا يا عزيزي؟

«التقيتهم جميعهم، الهاربين قبلي.

اختلط الشعر بالبكاء الجزائري على أرصفة الانتظار والزحمة. كانت فرنسا قد تشبعت بنا، أو كنت قد تأخرت لألتحق بمكاني، وحين وصلت وجدته محجوزاً بالرفض. أسماؤنا كلها نكرة هنا، فهل تظنين أنَّ من السهل عليَّ أن أحمل كتاباتي ككاتب مبتدئ وأنتظر رؤساء تحرير تخطوا مراحل عشق الكتابة منذ زمن، هل تظنين أنهم سيشعرون بعظمة أزمة مثقف جزائري من عروشهم المخمل، وهم بعد يظنون أن الجزائر

قطعة من فرنسا، وأننا دخلاء على خارطة العرب فما بالك باللغة. قال لي شاعر عربي كبير متخم جداً بشهرته وأمواله: «لماذا لا تكتب باللغة الفرنسية، أليس هذا أجمل وأقرب لمجتمعك؟» صَعُبَ عليّ أن أرد عليه: هذا انتقام، وبدا لي أن الوقت ضيق لأسرد عليه قصة إبادة عائلة بأكملها من طرف الجيش الفرنسي هي قصة إبادة عائلتي حين كنت رضيعاً، وكدت أقول له تحت وطأة غضبي: لا أحد سيتعدى على إقليم إسمك وشهرتك. لكنني في اللحظة ذاتها سخرت من نفسي. هل أعطينا ثورة التحرير حقها في كتاباتنا بقدر ما أهدرنا حبرنا على ثورة دخيلة؟ هل كنا نعي أننا ألغينا بأيدينا ألمع فترة في تاريخ الجزائر فيما كنا نثرثر عن قادة لا تحتلُّ أوطاننا، ولو رقعة تقارب الصفر، بين أفكارهم...

إنني لا أعرف مستقبلاً لمصيري هنا، ولكنني منهار.

بعض أخطائي اكتشفتها مؤخراً، فلو أني طلقت فلسفتي من زمان لكنت تزوجتك حسب شروطك ومنحتك أطفالاً رائعين، وما صنعت منك العانس

التي لا مستقبل لها في مجتمع أرعن، ولكنت كتبت الوطن من دون إتلاف ماضيه وتشويه حاضره، وما اخترت منفى لا يتناسب معي في هذا الوقت بالذات كجزائري له ثقافة عربية.

ولكنه «القلب وما يهوى» اخترت عاصمة وهاجة، ولم أفكر بأنها قد تكون الشعلة التي ستأكل جسدي. أفوق الشمس حياة جميلة؟ كلا!

ها أنت تعرفين الإجابة فلِمَ البكاء عليّ؟ لقد قررت الموت احتجاجاً على أخطائي، ففجأة اكتشفت أنه لم يعد لي مكان شاغر في الحياة...».

عليك اللعنة بقدر ما أحببتك.

ألأن الحياة ليست جميلة فوق الشمس تقتل نفسك؟ إني لا أراك إلا في قلب الشمس من خلف أسوار الوطن.

بيروت ـ جويليه 1996

أريدك امرأة لأحلامي

أحب أن أسميه الفيلسوف، لا لشيء سوى لأنه فيلسوف فعلاً. الحياة بالنسبة له بيضة، والبيضة شبيهة بالعالم، والعالم نقطة، والكون نقطة، وهو نقطة، وأنا أهم نقطة في حياته. هذا ما يقوله لي على الأقل.

وأحياناً يناديني «بيضة»، وحين أسأله بدلال: ماذا تعني له البيضة؟ يجيبني دون تردد: «الحياة هي البيضة يا بيضة». مضى على تعارفنا خمس سنوات، والآن حان موعد تحديد نهاية لعلاقتنا...

... هو يُدَرِّس الفلسفة في ثانوية ضائعة في هلام هذه «البيضة»، وأنا أُدَرِّسُ الكيمياء التي لا تعني شيئاً لتلامذتي إلاّ ما يتعلق بصنع قنبلة.

تلميذي المشاغب «عمّار حسُّون» لا يكف عن طرح سؤاله: «متى نصنع قنبلة لنا يا أستاذة؟» حقيقة

أنا لا أدري متى تسنح لنا الفرصة لنصنع قنبلة معاً، وحتى الفيلسوف لم يحدد لي إجابة لهذا السؤال، ظل يحملق فيّ كأنه أضاع شيئاً ما في ملامحي، ولم ينبس بكلمة طيلة ساعة، بل ظلّ يفرك لحيته التي لم يحلقها منذ زمن...

إنه فيلسوف!... ومن حقه أن يصنع بنفسه (العجب) ما دمتُ لم أصبح زوجته بعد. أردت أن أهمس له بهذه الحقيقة المعششة بخلدي منذ زمن. لكن سؤال تلميذي «عمار حسون» ظل يسدُّ منافذ الكلام على لساني. في الأخير قررت أن أطرح عليه السؤال مرة أخرى:«متى نتمكن من صنع قنبلة يا فيلسوفي البشع؟» لم أفترِ عليه في يوم ما، هو بشع بالفطرة، جاحظ العينين من كثرة التأمل، وله أسنان طويلة شبيهة بسور الصين العظيم، أما شعره فهو منسكب على كتفيه منذ كان طالباً بالجامعة، لكني لا أفهم بعد ما الذي يشدني إلى شكله الأقرب إلى البشاعة منه إلى الجمال، فلا أمل من النظر إليه أحياناً...

إنه يحب دائماً أن يناقش الأمور حسب أهميتها، يصنفها، يخترع أسماء عجيبة للأشياء التي نعرفها،

يطرح كثيراً من الأسئلة حول ما نعتقده شيئاً بديهياً، إنه مختلف...

كان ما يزال يتأملني وأنا أنتظر منه إجابة أقنع بها «عمار حسون» المشاغب، وكانت فرصتي لأغوص عبر شحم عينيه إلى بالوعة أفكاره. ترى هل سيقرر اليوم ويحدد موعداً لخطوبتنا، موعداً لزواجنا، موعداً لنهاية مواعيدنا المسروقة كلها في «استوديو الأنوار»؟... هل سيقرر اليوم؟.... .

ـ هل تفكر في زواجنا يا فيلسوف؟

ـ بيضة... حبيبتي، حين تتحدثين عن الزواج تبدين غبية مثل كل النساء حين تسيطر عليهن فكرة الزواج...

ـ لكن الزواج هو العلاقة الصحيحة بين...

ـ (يقاطعني) لن نتمكن من صنع القنبلة لأننا نفكر دائماً في إقامة علاقات صحيحة بيننا... نفكر... نفكر...

ما الذي يقوله هذا المجنون؟ إنه يروي مشاعري بالهلع، إنه في لحظة أقل من لمح البصر يغير هويتي

إلى عاهرة (حسب الأعراف).

ـ لكني أحبك... أحبك... أرغب في مواصلة الحياة معك، هل تفهمني إنه من الصعب أن أقف عند هذه النقطة التي لا تمثل النهاية السليمة لما بدأته معك...

ـ لِمَ لا تكونين امرأة غير عادية؟ لِمَ لا تكونين امرأة أبدية لَا تنتهي بشراء وثيقة متفق علَيها من جهة ما أنها وثيقة شرف... لم لا تكونين امرأة لأحلامي، تكبرين في أبحاثي، في دراساتي، وتكبرين في التاريخ؟ نعم أريدك امرأة لأحلامي يا بيضة» أريدك عنيفة في البقاء، فلا أريدك أن تكوني زوجة، امرأة للطعام، للأطفال، للبكاء، لدعوات الغداء والعشاء، امرأة لهم،لا أريدك كذلك...

كل الرجال يكذبون، يكذبون بالجملة، وحتى فيلسوف، بعد عام على هذا الحكي، تزوج من أخرى، وأنجب أطفالاً، فيما منحني بطاقة عهر دائمة كانت نتيجة علاقتي معه في «استوديو الأنوار»، ولم أجد زوجاً أفكّ به عقدي التي أصابني بها فيلسوف، فعدت إليه لأكون امرأة لأحلامه... الغريب أنني بعد

زواجه لم أعد أطيق سؤال «عمار حسون» «متى نتمكن من صنع قنبلة؟» يخيل إليّ أنه يقول لي «متى ستقيمين علاقة صحيحة مع عشيقك، متى ستتزوجين؟» صرت أمقت سؤاله، وأمقت وجهه، وأمقت وجوده، فأعطيته وصفة لصناعة قنبلة تقليدية، فتخلصت من سؤاله، ثم فيما بعد نسيته تماماً، حين تحولت الى أمرأة أحلام فقط.

قسنطينة_14 نوفمبر 1993

أريد نبياً

ككل العيون الساحرة كانت عيناه، أسمر، لوّنه البحر بمزيد من السمرة، بشيء من الحمرة، وشيء ما، بعدُ لم أفهمه يجعله يزيح شفتيه بين الحين والحين عن ابتسامة لذيذة، سيئة النيّات، سيئة المآرب، لذيذة، هادئة تستوي على أمد ما بعد هذا اللقاء، لذيذة. . .

ككل العيون الفنانة، كانت بطاقة هويته، تفضحه ·

النظرة بعد النظرة، الكلمة بعد الكلمة، الشاطئ سخن، والأجساد معلقة بين الأزرق والأزرق بترانيمها، وبفائض من الإشارات القادمة من الضفة الشمالية، كل ما هنالك يغرينا بالحياة، حتى هذه النسمات، أشمها محملة بضجة الأطفال والنساء والرجال، البحر مزهو هناك، وهنا، بيني وبينك

صمت الصبيحة ولغة الموج، ومصطافون أكثرهم نساء خائقات من التعري... ها هن يقضين عطلتهن الصيفية بغطس أرجلهن في البحر، وتلوين وجوههن بالسمرة،

لذلك ربما ظللنا نُسمّى بدواً، فالصحاري تناسبنا أكثر، والبحار والشطآن تناسبهم... هم!

المسافة تفصلنا هذه المرة، طاولة عشاء طويلة، لطولها تخيلتها جسر سيدي راشد[1] يفصلنا، أنا وأنت كالصخرتين والوادي المعبأ بالموت، غائر في قعر كرسي يفصلنا؛ رجل خمسيني، قصير وضخم، قدمه لي زميل على أنه رجل مهم. رجل ذو كرش كبيرة وأسنان طويلة، لا بد أن يكون (مهماً)، لكن، بالنسبة لموقعه على الطاولة،كانت له (أهمية) أخرى...

كان مزعجاً...

أكثر من مرة أحاول أن أنظر إليك فأجد ضخامته جداراً كبيراً بيننا، وكنتَ جريئاً، حملت مقعدك

---

(1) أحد جسور مدينة قسنطينة وهو أكبر جسر مبني من الحجر في العالم.

وجلست مقابلاً لي، كتمتُ الضحكة في صدري؛ تقاليد تناول العشاء الموروثة عن عائلتي المحافظة تعتبر هذا التصرف أحمقَ، لكنك أرضيت غروري بهذه الحماقة،

أعجبت بك...

وها أنا أغيب فيك لحظات، تصمت، تتوقف حكاياك، تتفحص عيون هذه العصفورة الصغيرة، تسألني، في ذاتك يظل السؤال عالقاً «كيف تريدين أن نبدأ أيتها الصغيرة؟»

أجيبك، في ذاتي يظل الجواب عالقاً

«ما شكل البداية عبر ممرات العيون؟»

أتحاشاك بعدها، تخجلني بأسئلتك الجريئة، بحديثك السلس، المحبوك بامتياز، تمنيت لو أنك أعمى، حتى لا تبصر باقي النساء،

هذا شكل البداية لديّ، فهل أعنف من أن أمتلئ بك وبسنواتك الأربعين الداكنة بحروبك مع الذات، دون أن تفضحني، أرتوي بك على مهل... دون أن تشير لي في كل مرة من قلب رأسك الصلب، انني طفلة؟

ضحكتك الساخرة تصلني... «أنت طفلة».

حين نكون أطفالاً يُزعم أننا نكون أبرياء، لا يُعترف بنذالتنا الفطرية، ورغباتنا المشوهة.

حين نكون أطفالاً في الحقيقة، تكون رؤيتنا لبشاعة العالم أوضح قبل أن تكبر طحالب الشّرّ في رؤوسنا...

ـ أنا كاتبة قصة، هذا ما أحب أن أمارسه بجنون.

ـ أنا لم أسألكِ عن ذلك، ولو بقينا دهراً معاً لما سألتك.

لا أحب أن أعرف ما يفعل الآخرون،... لست فضولياً! عذراً...

كان يجب أن أفهم أنني أنثى، وهذه مهنتي التي تعرفها مسبقاً؛ فكل الإناث جميلات، وكلهن لذيذات، وها هي الكاتبة، والمسرحية، ومذيعة التلفزيون ديباج مهم لرجل مثلك، أو مكملات لتاريخه الشخصي، وهذا ما لا أفكر فيه بتاتاً، كنت أقول لنفسي:

ـ ليت لون عينيك أخضر.

للخضرة سحر على عيني، وعلى قلبي.

للأخضر سحر قريتي، وسحر الجنة، ما لم تفهمه، هو أن هناك رجالاً لا يمكن أن نحبهم لأنهم رجال، في الغالب نحن نحب من يختلف عمّن نعرف، وبالضبط عمّن يختلف عن صدمتنا الأولى أو خطئنا الأول...

تسألني، ينصت الشجر الذي يجالسنا إلى جرأتك.

ـ حين رأيتيني لأول مرة ما كان انطباعك؟

صُغتُ السؤال بطريقة أقرب للواقع:

ـ هل أعجبتُكِ؟

وكدت أجيبكَ «جداً».

تبدو لي خرافياً مثل عملاق القل الأسطوري، وددت لو سهرت معك ليلة تنام فيها الشمس للأبد، تحكي، وتحكي، وتحكي، تهشم زجاجات الانطواء التي تعزلني عن العالم، فقد تعودت أن أعيش في قعر

الزجاجة، وملمس الحياة لا أعرفه إلاّ من حكايا رجال مثلك لا تحلو لهم الحياة إلاّ وهم يتخبطون في أعفن أمعاء الدنيا...

لم أقل لك ما أريد، أجبتك بصياغة أخرى:

ـ ابتسامتك شدتني... لقد عرفت للتو أنك خبير بالحياة، كان ذلك يشع من سواد عينيك.

ـ كان بودي أن أسألك، ما كان انطباعك الأول حين رأيتني لأول مرة؟

كنت ستجيبني ربما ككل الرجال الذين يتقنون أداء أدوارهم أمام النساء: «لم أنتبه، أنا لا أحكم على الناس من أول نظرة...». وقد تقول لي: «حين لمحتكِ،شعرتُ أنني أعرفك مُذْ كنا أطيافاً في السماء»، وقد لا تكون ذكياً جداً إذا اخترت أن تجيبني قائلاً: «عيناك أوْحَتا لي أن شيئاً ما سيحدث بيننا»، فهكذا ستشبه كل الرجال، ولقد تفاديتُ أن تشبه كل الرجال.

حين تماديتَ في جرأتك، كنتُ على وشك أن

أسايرك، لكن النادل المهذب لم يرض أن تظل كأسك فارغة، تدخل في لحظة خِلْتُ فيها أن العالم قد يصبح لنا، لم أعرف إنْ راودك هذا الشعور من قبل، ولكنه بالنسبة لي الشعور الثابت الذي يسبق الانغماس في قصة حب...

انتهت كأسك الثالثة، وصار ممكناً أن أجالس زجاجة الويسكي بدلاً منك، وصار ممكناً أن ترى وتسمع غيري في الوقت الذي أحدثك. تقاطعت دروبنا عند الكأس الثالثة، ولم نصبح على ذات الخط، لم تصبح جرأتك تغريني، رائحة الكحول كانت تسبق في كل مرة كلماتك، وهذه تذكرني برائحة المستشفيات والمرضى، ورائحة تبغك بالحرائق. عجيب كيف تبددت بعدها صورة الشاطئ السخن، وجبينك البراق، وكيف خمد الإغراء في عينيك تحت تأثير الكأس الرابعة، ثم تمادى البعد في صنع المسافة بين أفكارنا؛ من قمة الوعي كنت أخاطب انحدارك إلى لغة الجسد، ثم استحملت حكاياك عن نسائك القديمات.

كان عادياً جداً أن تستعمل هذا الاستدراج الرجالي

لأنثى تفتح شهيتك بعد وجبة غنية بالكحول،

وكـان عـاديـاً جـداً أن أقـف دون اعـتـذار، وأن أنسحب، فشاطئك المفروش كامرأة بلا ثياب مستعدة (لأي شيء)، أصبح يخيفني،

لم تفهم كيف أتخذ القرارات بسرعة، وكيف أحببت حضورك وتقبلت رسائل عينيك حين كان للنهار طقوسُه وحين حلت طقوس الليل نفرت...

أمامي الله...

«خلفي أب، مسجد، وآذان»[2]

أمامي الله...

العشق أمنية مبتورة الجوهر حين يحل الخوف في ضلوعنا بدل اللذة...

أمامي الله...

رمقتك بآخر ما تبقى لي من رغبة،

---

(2) مأخوذة من نص للقاص الجزائري مراد بوكرزازه.

لست عملاقاً خرافياً، كنت رجلاً، كنت باباً خلفياً آخر خرجت منه،

في غرفتي، وقفت أمام الله، مددت له يديّ مفتوحتين مرتعشتين من الخوف من عمى العشق الفجائي، رفعت رأسي إلى السماء، توسلته «يا رب أريد نبياً».

القل ـ 24 جويليه 1994

الحصار الذي يقتل الحب

كنت أدرك بعمق أنه لا يفهمني، كان بيني وبينه جدار كالسماء أو كيان كامرأة، نعم، كامرأة أخرى تتقاسمني هذا الزوج المشغول أبداً عني؛ يدخل مساءً وكأن الظلام يمتطيه من آخر الدنيا، يعسكر في مكتبه حتى يقترب الصباح، ويغفو إلى جانبي كبركان أخمده العياء لبضع سويعات...

تتقاتل أيامي سنة بعد سنة...

لم تتكلل حياتنا بالنجاح الذي يجب، لم نرزق الطفل، ولم أعرف كيف أطرد الصمت من بيتي...

يدخل متعباً، يغيب في أوراقه لساعات، يطلب فناجين قهوته فنجاناً بعد آخر، ينتابني الشعور بأنني خادمة كلما دخلت عليه بفنجان لا يصاحبه الكلام.

أتطلع إلى صلابته، في شعره الليلي الذي قاوم

سنواته الأربعين، في سواد عينيه الذي يرسو على طبقات من الهيبة، في يده البارعة بامساك قلم لا يستريح، كان مثيراً كله، كان كائناً لا يتوقف عن إثارتي بصمته... أو بهذا الصمت كان يغتالني مرات، ثم مرات، ولمرات أخرى يعيد اغتيالي بالصمت ذاته... أشتاق إليه، أشتاق إلى رجولته لأغطي ضعفي، أتحين الفرص كذئبة مفترسة، وأشعر باللحظة الحاسمة التي سينجح فيها الهجوم، لكن اللغة تخونني، وتنتحر أبجدية جسدي الأنثوي في تقاطيع ذاكرتي المحاصرة، بطفولة مطوقة، وصبا مسيج

ـ لا، لا يا فوزي لن أستطيع، لن... أستطيع...

أستغيث بنداء لا أعرف إن كانت تترجمه عيوني، فلا أظن مذ تزوجنا أنه حدث وفكّ رموز أعماقي، في الوقت الذي يتنفس من حفيف أوراقه في مكتبه الموصد، كنت أجالس صورته، وأتنفس رائحته من على الوسائد وتحت أغطية الفراش، وأنام وصورته تحدثني، وأناملة التي لا وجود لها تتخلل شعري، ثم يسرقني النوم لأستفيق صباحاً على يوم جديد يوطد

طول المسافة بيننا.

كل الأيام نقاط صمت متواصلة، كلها تتار هائل من الوحشة يجتاحني، كلها تيار شوق لحبيب يقاسمني النصف الآخر من حياتي، النصف الأكبر منه عن بعد.

يا الله!

كان يسألني ذات يوم:

ـ يبدو لي أنك بعيدة عني، لِمَ لا تدخلين عالمي؟

لَمْ... وكنت أسجد عند قدميه، أتجرع سحر عينيه بحب، بحب كبير، وكدت أطوقه... لولا عقدتي الوراثية...

كانت ذاكرتي ما تزال محاصرة، كان دفتر القيم والعيون الآمرة يسري في دمي...

ما زلت فتاة مهذبة في نظري، فعن أي عالم كان يتحدث؟ أشياؤه مرتبة، البيت هادئ، وأنا مطيعة، ومجيء الأطفال مشيئة إلهية...

كان يبدو لي والداً حيناً، وحيناً أخاً أكبر، وحيناً

كنت أهواه لأنه زوجي، وكنت أشتهيه لأنه رجُلي...
ما جدوى أن أخلط الأمور إذن...

لقد عجلت في انهاء عمرنا المشترك، أو ربما بالغت في كوني فتاة مهذبة...

جاء آخر يوم نقضيه معاً قبل أن ننفصل حين دثرني بليل عينيه الغاضبتين، وكنت ما أزال أبحث عن مزيد من الارتواء به، رغم تلك الكلمات القارسة التي تعصف من ثغره،

«لا يمكن أن تكوني أمرأة من لحم ودم، أنت دمية سخيفة لا يمكن أن تسلي رجلاً»

أردته أن يغضب مني أكثر، أحببت عقابه رغم بكائي، أحببت رحيله رغم الشوق إليه... أحببته رغم ارتمائه في حضن زوجة جديدة علمتني كيف تغمره بذراعيها، وكيف تحسن الابتسام، وكيف تحكي له حكايات كما شهرزاد، وكيف تكون جمال البيت وروحه بقليل من القيم، وقليل من التصورات...

قسنطينة 25 جانفي 1994

لحظة لإختلاس الحب

(كنتُ أبحث عنك... في هذه اللحظة، وفي لحظات أخرى خانتني فيها الذاكرة، وداسني فيها الوجع. كنت أبحث عنك بسمرتك الداكنة، بشعرك الجعد، بطولك الفارع، بنحولك المميز، بنصاعة ابتسامتك، بعينيك الدامعتين أبداً...

كنت أبحث عنك في دهاليز هذا العمق التائه في صدري، وأسترد الصورة تلو الصورة لأحداث كفَّنها الماضي.

أعيش اللحظة بنفس ثقل حركاتك، وثقل كلماتك التي تصوغها مهذبة كأخلاقك. كنت ترسمني عظيمة في دموعك المدرارة،ولا أجد مخلباً أخدش به صمتي. أنفض أعماقي الخجلى منك، القزمة أمام ذلك الحب الكبير، وأسدل رموشي، هاربة من ملامحك التي

تجردني من ادعاءاتي. كنت أدرك بمرارة أن كل الأشواط لم تكن في صالحي، فلم يكن بإمكاني أن أبادلك الشعور بمثل تلك الحرارة المنبعثة من عداد نبضك.

يبدو لي أحياناً أنك آخر الرجال الصادقين في هذا العالم...).

هل كانت هذه فقط هي الفكرة التي راودتني في هذا الصباح؟ لا أدري... الطريق كان مبلّلاً، الوجوه كانت مبللة، وحتى صدري كنت أشعر بالبلل يجتاحه بغزارة، وكل الصور التي التقطتها ببصري كنت أحسها مبللة، مشبعة بالبلل...

(لماذا أختلق الأسباب دائماً لأقنع نفسي أنني أختلف عن الآخرين؟ لماذا أُهوّل الأمور حين أمارسها أنا، أو حين أتلقاها أو حين أحللها؟ كنت تسألني السؤال نفسه دائماً، حين تصر أنك سعيد معي، وحين أصر أنني فاشلة في إسعادك، فهل كان يكفيك أن أكون معك لتشعر بالسعادة التي تصف؟

صدقني... إنني لا أشعر بهذه السعادة حين

تكون أنت معي، أو حين أسمع صوتك عبر الهاتف بالرغم من أنني أفتقدك أحياناً، أو أحتاجك أحياناً... نعم أحتاجك جسداً وحواسّ،وكل كواكب أفكارك أحتاجها...).

ما الذي يجعلني أتذكرك في هذه الصبيحة؟ ما الذي يحشرك وسط انشغالاتي، وأرقامي التي لا تكف عن معاكستي؟

وما الذي يبعث صوتك من عمق نحيب المطر وصراخ أبواق السيارات؟ (يحزنني دوماً في آخر كل لقاء، تمزق كياني بتوسلات عينيك، وحين تصر أن تغني لي بخفوت: Ne me quitte pas هل كنت تدرك أنني سأتخلى عنك؟

ها...؟

– هل كنت تدرك ذلك؟

– وهل تخليت عنك حقاً؟

– هل... هل أحبك... وهل أحببتك في يوم ما؟

لا أدري لماذا أتذكرك، ولِمَ ترفض طاحونة أفكاري

اليوم أن تدور مع رياح ما حدث، ولِمَ ترمي لي بقايا دقيق السنين، ألا يمكن أن أتجرد من هذا العمر القابع في عمري الجديد؟ كم هو مقرف هذا اليوم!

(هل رأيت، إنني لا أحتمل التفكير فيك هذا الصباح؟ فهذا يجعلني أتشاءم، أو يجعلني أخاف من أن يكون علامة للقياك فهل يمكن ذلك؟ ماذا لو التقيتك في الطريق، واصطدمت عيناي بعينيك، وحضر الماضي بكل شساعته؟)

يا إلهي، إن ذلك مخيف...

أين سجائري؟ أين هي؟ أبحث عنها بهوس في هذه الحقيبة التي تشبه بيت مومس، أقلب الأوراق، أحمر الشفاه، زجاجة العطر، أقلامي، حافظة الأوراق، أين هي هذه اللعينة؟ أين هي؟ حين صارت العلبة في يدي تذكرت أنني في الشارع، وأن الشارع القسنطيني ككل الشوارع الجزائرية تحظر التدخين على المرأة. فهل سأفعل ذلك؟

(كنت أفعل ذلك وأنت معي، تتأمل السحابات مشحونة بالألم وهي تتصاعد من جوفي...

تتأملها. . .

تتأملني. . .

فلم تكن مدخناً أبداً، ولم تكن تحتمل دخان سجائري لكنك كنت تتقبل كل مساوئي. . .)

حين تنشني أوجاعي في طيات هذه الذكريات أنسى معالم يومي، أنسى زمني، أو في حقيقة الأمر أتذكر ما توقف عليه عمري من عشر سنين.

عشر سنين مضت، لم أصادف فيها سواك، بعد أن أطفأت شمعات الحب كله، ولم تعد هناك ثغرة لرجل آخر، أو لم يعد هناك حيز في رأسي يتسع لحماقات حب جديد، وتصرفات طفولية لرجل آخر عاشق. . . إن وجد. . .

(هل تدرك عمق الهوة في ذاتي؟

هُوة ألم من يعرف ما يريد ويتصرف كما يريد جيرانه، أو أصدقاؤه، أو الناس الذين في الشارع، بحكم علاقة وهمية تربطنا تسمى «الهراء الاجتماعي»!

تفه!

أريد أن أشتم هذا المجتمع الأعرج الذي يدين فينا كل ما نحب... كنا نلتقي وكانت نظرات هذا الشارع تلاحقنا، تجسد لي نظرات والدي حين أتأخر عن موعد الدخول إلى البيت، بألف تهمة في عينيه، تلك التهم الثقيلة، التي لا تختلف عن الخطايا التي لا تغتفر

«مع من كنت إلى هذا الوقت؟» يسأل

وأجيبه وداخلي يهتز، ورموش عيني تغلق عنه المنافذ للعبور إلى بصري

«كنت مع صديقة، نسينا الوقت مع الكلام»

لكن صوته يرتفع، يزعزع أركان الدار، يهدم أسوار الحصن الذي أخفيتك فيه، ويصرخ في وجهي:

«كلام صديقة ينسيك كل هذا الوقت... هه!... صديقة!!» إنه لا يصدقني، فهل كان يراك؟ أو هل رآني أحد معارفه معك؟ أم هي مجرد إسقاطات لحياة عاشها من قبل، وأكاذيب كذبها من قبل؟

لم أكن أستطيع أن أستحمل اتهاماته، صراخاته،

تعريته لي، لم أكن أطيق ذلك، ولا أنت كنت تطيق ذلك، كنت تشعر به وهو جالس بيننا، وأنا ايضاً، وكنت تسألني:

«إذا تزوجنا هل يظل بيننا إلى الأبد؟ هل يظل كالحاجز بيني وبينك؟»

ولم أكن أجيبك كان الأفضل لي أن أبتعد عنك، وأن أخلصك من تعبي ومتاعبي. فهو يسكنني، يجري في دمي، يتخفى تحت جلدي، إنه قابع هنا حيث تتجالس أفكاري...).

* * *

كان المكتب مملوءًا...

يبدأ الاجتماع، يبدأ حفيف الأوراق، تتسلل إلى أنفي رائحة التبغ شهية، تطفئ ما التهب من أعصابي خلال الطريق...

إلى هنا كل شيء يسير على ما يرام.

تبدأ لغة المشاريع، طرح الأفكار، يحتد النقاش حيناً وحيناً يهدأ، يجيء دوري، تحاصرني العيون

وبعض الهمس:

«إنها رائعة...، ستبهرنا، إنها امرأة بألف رجل...

شعلة المؤسسة...»

أفتح ملف أوراقي، وألقي أهم نقاط مشروعي، فيما أستمتع بالدهشة والاعجاب اللذين يعلوان الملامح...

(لعلك الوحيد الذي ترى ضعفي، لأن الأنثى فيّ لا يراها غيرك، الأنثى المكبلة عند كعب رجل، والمشدود رأسها في مشنقة رجل آخر).

كانت عيناي تراقبان الساعة، تتقفيان أثر الثواني، وهي تزيد من حدة قلقي، ترسمه إبراً توخز هذا القلب، الذي يركض كالمصاب جنوناً في كل ربوع جسدي، ينهشني قفز هذه الثواني، ويحدد ملامح الوالد الشيخ الغاضب بوضوح، هذه الثواني المكبلة الدائمة لفمي إذْ، تضع نقطة النهاية لتدخلي، وتدفعني لمغادرة المكتب تاركة ورائي كثيراً من الهمس، كثيراً مما يتراءى في كل مكان أحل فيه، كثيراً من علامات

الاستفهام التي لا أقوى على تحديد إجابات عنها. . . كثيراً. . .

(كنت لا تفهم هذه العجلة التي تتحكم في سلوكي، مع أنك تعرفني مثل نفسك، أو كنت تتجاهلها لأنها حلٌّ لعجزك من انتشالها مني.

فها أنا حين أحبس نفسي في هذا البيت أشعر بالراحة، وأشعر بأن تهمتي زالت، أو ربما أُجلت. . . وتأجيلها، يعني أنني سأطمئن لبعض الوقت)

تطول المسافات حين أود الاسراع الى البيت، سيارات كالسلاحف، حافلات كالموت،

تستوقفني صديقة لم أرها منذ زمن، تسأل، يتحول السؤال إلى أداة أخرى تعطلني، عكس ما أرادته أداة تبرير، تستوقفني أخرى، وتسألني ذات السؤال:

ـ «لِمَ لا نراكِ»؟

لِمَ لا أراهن أنا؟ أجبهم أنت. . .

أدفع الباب، ألقي تحية باردة على أبي، أتحاشى

كل النظرات التي قد تحرق بقايا دمي، أسرع نحو غرفتي لئلاّ أتلقى أي ملاحظة عن تأخري، أغلق الباب، وأستند إليه، يصلني حديثهما:

ـ إن خروجها المستمر صار يجلب لنا مزيداً من الكلام الذي نحن في غنى عنه.

ـ إنها تعمل، ولا تسرق اللقمة من فم أحد،

ـ إنها عانس، وتعمل في وسط كله رجال، ورغم ذلك لم تستطع أن تحصل على زوج مثل بنات الناس...

(أتذكرك، أبحث عن خيالك في المرآة، عن طولك الفارع وسمرتك، وشعرك الجعد، وعينيك الدامعتين، يتراءى لي صدرك حياً دافئاً، أبكي بغزارة، وأرتمي على صدرك للمرة الأولى، وأهمس لك للمرة الأولى أيضاً:

ـ أحبك.)

قسنطينة 30 أفريل 1993

رجل بالمجان

وصلتني منذ أسبوع آخر رواياتك «مأزق كاتيا» عليها إهداؤك الهادي وتوقيعك الذي يشبهك.

في الغالب مآزقنا أرصفة إجبارية نمر عليها، وفي الغالب، مآزقنا هذه هي رونق القصص والروايات والقصائد،

لقد رويت لك مستجدات حياتي ذات ليلة، رويت لك المنعرجات الجديدة التي جعلت مني عجوزاً قبل الأوان، المآزق في حياتي اختارت أحلى رصيف في عمري لتحجزه للأبد...

هل تذكر تلك الليلة؟

تلك الأمسية التي أمضيناها معاً على كورنيش بحرك، وهضبات خيالك، قرأت لي روايتك الأخيرة، فسبحتُ في حلو كلامك، منذ الظهيرة، حتى فاجأنا

الهزيع الثاني من الليل. نظرت إليّ وأنت ترتشف آخر القطرات من قهوتك الخالية من السكر (قهوتي التي أحبذها الآن).

فككت أزرار قميصك الصيفي، حتى آخر زر، ثم أزحته عن صدرك النحاسي المعشوشب، ووجهت لي على طريقتك القصصية في الكتابة، دعوة رسمية لقضاء الليلة مجاناً معه.

قلت لك وسحر الليل قد زادك حلى في عيني:

ـ حين تحجزه لي لأقضي معه كل ليالي العمر سأقبل الدعوة... (وأشرت إلى صدرك.)

رفضت الدعوة إذن، وخرجت إلى الشرفة، لم أهرب منك، لكنني بخروجي شعرت أنني لن أخاف منك والنجوم تراقبنا. سمعتك فجأة تناديني:

ـ كاتيا... كاتيا...

التفتتُ إليك، وجدتك شرساً، ومخيفاً، والشرفة أصبحت ضيقة فجأة، ويداك كبيرتان،

ألقيت القبض على عنقي، ثم همست لي والحمرة

تحتل وجنتيك

ـ أريدكِ الليلة

سألتك:

ـ وماذا بعد الليلة؟

ظلت نظراتك تحوم في أغوار عيني المعبأتين بالخوف

وسألتني مرة أخرى:

ـ لِمَ جئتني إذن؟

لكأنك وبختني على كل تلك اللحظات التي انصَتُّ فيها إليك باهتمام وشوق،

فمن أهم جسدي أم روايتك؟

صرت أعرف أنك تستعمل رواياتك طعماً لاصطياد نساء متعبات مثلي، لكنني أتساءل هل تقيم رواياتك بأشكال النساء اللواتي تصطاد؟

غدا ربماً ستجلس في مكاني امرأة أخرى، أقل أو أكثر مني جمالاً، وقد لن يهمك ذلك، قد تعجب بثرك، وقد تعجب بالنحاس الذي يزين صدرك،

هل ترغبني يا وهبي؟

سألتك، وأنفاسك تزداد قوة وسخونة. تعطلت لغة الكلام بعض الشيء عندك، قبل أن تضغط على كل حرف من إجابتك المختصرة:

ـ أريدك

قلت لك:

ـ إحذر، قد تنكسر أسنانك من شدة الضغط!

فسؤالي لم يكن يعني مني قبول وليمة جسدك؟ بقدر ما كنت أعني به شيئاً آخر؛

ـ لك جسدي مقابل روايتك، إنها ستنجح أكثر إذا ما وضعتَ عليها توقيعاً نسائياً

دفعتني عنك بعنف. زال خوفي. صرخت في وجهي والحمرة تكتسح وجنتيك وجبهتك:

ـ خبيثة

ـ أينا أَخبث؟ سألتك

ـ أينا لا يفهم الآخر؟ هل تعرفين بإمكاني الآن أن

أغتصبك، وأجعل من دم عذريتك غلافاً لروايتي...

ـ ...

ـ هذا لو كنت نذلاً، لكنني أُخيرّك

كان آخر ما قلناه، وآخر ما اخترت...

غادرتك، ولم نلتق بعدها. كان بودي أن أحدثك عن دم عذريتي الذي ما أزال لا أعرف تفاصيل لونه.

للأحمر تفاصيل الحب أحياناً، وأحياناً تفاصيل الخطر، في دمي الذي أردت أن تصنع منه غلافاً لروايتك، حب كالموت وإشارة خطر لمغامرة لن تحدث.

كانت علاقتنا ستظل نقية أو ستستمر لو لم تكن أديباً. كان من المفروض أن تقدم لي نفسك على أساس أنك (عاهر) لأرسم حدود هذه العلاقة التي ستربطنا فيما بعد. يا لهول مصيبتك!

أنت اخترت فضاءً خاطئاً لعلاقتنا.

أنت عاهر يا وهبي. أضف إلى لغة أدبك كلمة جديدة هي هذه! إنك عاهر فوق العادة، ونساؤك العابرات لا يدفعن لك حقك نقداً، إنهن يضحكن

عليك، يأخذن طعم جسدك مجاناً، ويملأن دلاَء شبقهن من تعبك، من لياليك الآرقة، من حبرك، من جراحاتك... فهل ترى كم أنت رخيص؟

كم أنت مسكين... حتى وشهرتك تملأ واجهات جرائدنا التي تتكاثر بجنون كأنما هذا موسمها للتناسل. فبيتك سيحتاج دوماً لفائض من الإثارة، وقلمك لن تحركه إلاَّ نساء غبيات،

لكنك تدهشني هذه المرة، لقد قرأت «مأزق كاتيا»، ولم أشم رائحة إناث جديدات، كأنما أرى نفسي في كل سطر، في كل كلمة وفي كل نقطة حبر، فهل تراك قومت نفسك كما طلبت منك ذات يوم أم أنك ادركت أن أحسن ما يمكن أن نكتبه لا يكون عن نساء يتعرين أمامنا بسهولة

أحببت روايتك...

أحببتك... فربما توقفت أن تكون رجلاً بالمجان.

قسنطينة 18 جوان 1994

الخروج من زمن الموت

كنت أشعر بحلاوة وجودي معه، كان جاثماً فوق صدري يبحث عن صفحات عمره الممزق في ملامحي، منذ ساعة، أو بعض ساعة نفض ذاكرته (أقاصيص حزنه وبؤسه، وبقايا أحلامه الرثة) على مسمعي، لعن الزمن المشاكس الذي هضم حجمه كرجل، لعن الحكومة، ولعن الشعب، وقال لي بسخرية جارحة:

ـ ليتني كنتُ علبة «بيرة» في سوق أميركية.

ضحك وعيناه تصبان جحيمه المنطفئ في عينيّ، ثم غمس أنفه بين خصلات شعري، وظل سابحاً في إغفاءة كاذبة، تحاكيني أنفاسه المتعبة، برقة وبهدوء، ولم أفهم لماذا ظللت طوال الوقت صامتة، أنصت لألمه، أو لأنفاسه أو لحركات جسده، أو لصوت

المطر، أو... هه! في النهاية كنت أنصت لكل شيء، حتى صوت الرصاص من قعر الحي المجاور كان يصلني حادًا، مطوقاً بأصوات رجالية يملأها الضياع.

ـ إنك تشبه هؤلاء المساكين يا خلف؟

ـ لماذا تظلمينني يا وردة؟ (همسها دون أن يتحرك)

وعاودته الإغفاءة من جديد، بشكل أعمق، شعرت بذلك، نعم. شعرت، أحسست بنبضات قلبه، بنبضات قلبه تنتظم، بالنوم يحتل بقاع صراعاته اليومية، لقد تعودته، حفظت جواه، دموعه التي يروي بها جسدي بين السقطة والسقطة، بين الوجع والوجع، وبين النكبة والنكبة، صرت أفهمه، أتجرع معه حرقته، أتسعُ حين يضيق به الحال. أمنحه اللذة عارمة أبداً، في هذا الفراش المصنوع من حكايا الألف ليلة، أستسلم لشبقيته المجنونة رأفة به أو حباً له، لا أستطيع تحديد ذلك بالضبط، لقد انفجرت عواطفي، وتبعثرت من فرط الضغط، وهذا حتماً لم يعد يهمني في شيء، إنه يصنع جزءًا من كياني تماماً كما قالت لي صديقة ذات يوم: «صرنا مدمنين على

النكد، مدمنين على الهزيمة والقرف».

وهذا سبب كافٍ ليجمعنا (أنا وهو) حتى وإن كنت عشيقته الخامسة، وأبداً أظل عشيقة تبحث بكل الطرق عن ورقة شرعية تمسح بها خطايا العمر.

ـ لِمَ لا تزورني في ليلة من ليالي الفرح؟ همست له،

ولم يرد، كان نائماً، مشدود التقاسيم لكابوس ما، عرقه بارد دبّج جبهته الخمرية. كان بريئاً، بريئاً، بريئاً يا رب

أف! صوت الرصاص مرة أخرى، ثم دقات «المهاريس»(*) بدأت تزداد شيئاً فشيئاً، لطمت جبهتي، كانت شائكة كالصبار، أطلقت صرخة أعدمتها في جوفي: «غبي... كم أنت غبي يا خلف»، وسحبت نفسي من تحت ثقله، وقفت أمام المرآة، تأملت تفاصيل جسدي العاري، تأملت آثار الجرح، وسرعان

(*) مهاريس جمع مهراس: جرن ومدقة من النحاس وهما من أدوات المطبخ الأساسية. وقد استعملتها بعض النساء احتجاجاً في احداث اكتوبر1988 وما تبعها من أحداث في الجزائر.

ما شعرت برغبة جامحة في البكاء. جسدي لم يعد جسدي، صورتي انفصلت عن ذاكرتي، ألمي طفح كأحشاء بركان، وبدت لي الغرفة ضيقة، مظلمة، عفنة، تنقض على حلقي، تفترس الهواء في صدري، تنكل بي لأنني لا أزال أركن السنوات في حَلَق واحد...

كان بودي أن أوقف صوت هذه «المهاريس» المحتجة، وأُسمع صوتي لكل أولئك الصم «لا... لا... لا...»

لكن كلماتي تلقى حتفها دوماً أمام صورته، البريئة لدرجة الخوف حتى وهو يبكي عند ركبتي، يتكبل لساني، ولا تثأر الكلمات لجرحي. يا لهدوئه المريع، وهو غارق في نومه، هذا الهدوء الذي عادة ما يسبق عواصفه التي تنصب عليّ؛ لمست الأثر الذي شوّه فخذي، تراءت لي صورته وهو ثمل يكسر الأواني على رأسي لأن صهره طرده من البيت، وبعد أن سالت دمائي، وعلا نحيبي كف عن ضربي، بينما زغردت إحدى الجارات وأسمعتني وابل تشفيها «شّنة... شّنة... شّنة... يا بنت الحرام»

كدت أخرسها:

ـ إني الألم هياكل أزواجكن الجوفاء يا محترمات.

لكن الأمل أخرسني.

كان ما زال نائماً، ما زال بريئاً، ولا مبالاته تحفر الخنادق في رأسي، والغرفة، هذه اللعينة تحاصرني بلونها الدامي تطفئ آخر ومضات أيامي، أنا المهزومة في عقر حبي.

ـ سأرفع التسعيرة غداً... وسأقنن طقوس الحب...

تبا إني أهذي... إني أحبك يا خلف،... أحبك حتى العمى.

كدت أدس بجسدي في الفراش مرة أخرى، احتضن جسده الدافئ لأوهم نفسي بمزيد من الرضى، لولا تلك الخفقة التي هزت كياني من جديد؛ رغبة جبارة للهروب، لاختراق الشوارع، للتصدي لرصاص الليل، للخروج لملء رئتي بهواء كاف...

همت إلى خزانتي، سحبت فستان «الدُّنتيل» الأبيض من لفافته البلاستيكية، ارتديته، وتأملت نفسي للحظات، كنت جميلة، عروساً، أميرة...

ـ كم أنت غبي يا خلف... كم أنت أحمق...

كان ما زال نائماً، حالماً، وقد لن تزوره أميرة مثلي لتمسح حلكة كوابيسه، أبداً لن تزوره، ولن تضيء هذه الغرفة بعد اليوم

ـ لن تضيئها يا خلف.

خرجت. أوصدت الباب خلفي، مزقت نسيمات أكتوبر شممتها عبقة برائحة الدم والبارود، ملأت بها صدري، ورحت أجري، أطوي الشوارع اللزجة بقوة كادت تحملني في الجو لولا ذاك الصوت الذي شل نشوتي:

ـ توقف

لم أتوقف، كانت المسافات تحملني إلى السماء

ـ توقف

لم أتوقف

ـ توقف

لم أتوقف.

لكن شيئاً ما اخترق صدري وأفرغه من الهواء، تفحصته، كان السائل الأحمر يتدفق من صلبي، كان دمي، صدري لم يقوَ على التصدي للرصاص، كياني تهدّم، سقطتُ أرضاً، وارتطم وجهي بالاسفلت الندىّ البارد، وخيل إليّ أن العالم يضيق، يتحول إلى فوهة للموت، لم أمت، كانت فوهة سلاح تنتصب فوق رأسي ثم أقدام كثيرة سيجتني، ثم صوت قريب من صوت خلف علق بخيبة:

ـ إنها امرأة، مجرد امرأة

قسنطينة-6 جانفيه 1993

ما تبقى من مرحلة صراع

ـ أريد أن أتزوجك يا ناصر...

ما رددته في عمقي مرات، ما سأردده، طالما أنا واحدة من الطابور إياه...، أو طالما أنا من المستضعفين المعرضين لكل أنواع المذلة، وطالما أنا متخرجة (جديدة، قديمة) بدبلوم لا يحسن الإشفاق عليّ، ككل الدبلومات اللقيطة التي لا شرعية لها في مكاتب التشغيل.

مع كل احتراماتي لرجولتك، مع كل بُعدي عن أية نيات لإحراجك، مع كل انهزاماتي أمام البوابات الخارجية لمؤسسات الوطن، مع كل انهياراتي تلك، عبر سخافة واقع لم أتوقعه فائق السخرية والاستهزاء من مجموع سنوات الجمر الدراسية التي أفنيتها ساهرة لتحصيل العلم والأحلام معاً، مع كل تراجعاتي عن

طموحاتي الأنثوية النائمة في شرانق الحسرة، مع كل ما جَدَّ في هذا الوطن من متطلبات ومطبات للحياة أترجاك كَحُرَّةٍ لا تحسن التوسل، متوجهة إليك بخطابي، مني إليك، فهي بحر هذا الفؤاد الهائج.

أريد أن تستثمر ما أملكه من مؤهلات لم تتقبلها مني المكاتب والبنايات والشوارع، أريدك أن تجعل لي محطة ما ينتهي فيها سباقي في دائرة انتظار اللاشيء، أردُّ كما لم تكن لي ظلاماً وهمياً يحجبني عن نفسي أو يحجبني عن الآخرين، أريد أن أحقق أدنى ما حققته والدتي بين أربعة جدران خلال ثلاث وستين سنة، هذا الأدنى الذي لم يعد بمقدوري أن أجد سبيلاً لتحقيقه، فهل يمكن أن يكون الزمان قد صار سفاحاً لكل الأمنيات بهذه الفظاعة؟

أريد أن أتزوجك يا ناصر،

وأعلق «شهادة نجاحي المؤقتة» ـ التي خرجت بها من جامعة هرمة أعياها الخرف وتستر عجزها بخرق مؤقتة ـ فوق جبيني لتمتصها أثلام الفواجع المتكررة.

أريد أن أمنحك هذا الجسد، هذا البناء المهجور

إلاّ من صور أهله، ليكن لك علّك تكتشف فيه لذة ما مدفونة، تهزها، تحركها، ترفع حرارتها، لتغمسني مجدداً في رحم أمي، لأولد وفي رحمي طفل منك يجدد رغبتي في الحياة.

يا لآخر أحلامي الفجائية، طفل منك، أسكب له الحب كما كانت تفعل والدتي لنا، نحن أبناؤها التسعة، كما كانت تفعل باختصار مدهش؛ كنا أمنياتها الصغيرة، ولم نكن مهرباً لسد الفراغات التي صنعتها عقبات العصر.

زوج، بيت، وأطفال آخر ما تبقى في رصيدي من مرحلة صراع، أنا زينب بن عبد الباسط(*) الأولى في دفعتي على مدى خمس سنوات من الدراسة الجامعية وثلاث سنوات من التخرج ومن الادمان على كتابة طلبات العمل التي تحمل أسمى عبارات التقدير والاحترام لسادة لا يحسنون فك الخط جيداً، والمرفقة بنسخ طبق الأصل لشهادة نجاحي المؤقتة وكشف

(*) بن عبد الباسط لقب عائلي لكن ليس له علاقة بالعائلة الأصلية في الواقع.

النقاط بتفوق...

نجاحي، تفوقي، أسمى عبارات التقدير والاحترام، الكل في سلة المهملات.

أنا زينب المتفوقة، المتخلقة ابنة بدوي بن عبد الباسط موظف البلدية المحترم النزيه، لا أجد مخرجاً (نظيفاً) لورطة ثقل الكيان عليّ غيرك، شَغَّلْتُ كل طاقات الذكاء التي امتدحها فيّ أساتذتي على مدى عمري الدراسي مدعمة بتوقعهم المشترك؛ أن أكون امرأة متميزة. استعملت كل عبارات التهذيب النادرة في (سوق) كلامنا لأحقق حضوري كامرأة لكنني فشلت، وبدأت أتذوق ملوحة النجاح وصديده المخبأ في ثنايا الأيام،

أنا زينب المخذولة، أنوي بكامل قواي العقلية أن أسحب أوراق اعتمادي من واجهة المجتمع، أنا النادمة عن كل سنين أحلامي، وأحلام والدي، وأحلام والدتي ـ التي تمنت ألاّ أكررها ـ أبصم على وثيقة فشل بحجم السماء.

ناصرا أريدك زوجاً،

لسبب استثنائي في نفسي، أريد أن أختم فشلي وتعبي بهذه الدعوة السرية التي تأسرني، أريد أن أحبك (أو أمثّل عليك الحب سواء) وفي الحقيقة أريد أن أرضيك (كما كانت تفعل والدتي) لأحفظ بعضاً من وجودي، وبعضاً مما تبقى من ماء الوجه الذي جف في طوابير الانتظار.

اصنع بي ما شئت مما تخوله لك وثيقة زواج في مجتمعنا وامنحني فقط سبباً واحداً لتبرير بقائي.

قسنطينة 06 اكتوبر 1994

البناء على صفائح الملح

دخلت...

الحي شعبي، شعبي جداً، الممرات ضيقة، الشرفات والشبابيك متسوّلات معلقة، يلعب الهواء بأسمالهن، الروائح قوية هنا، رائحة الكِسرة(*) الساخنة تتميز عن باقي الروائح. رائحة مياه المجاري، رائحة الكدر، أصوات الباعة، الأسعار المنخفضة، الشباب العاطل يسند الحيطان... ها هي ذي «موناليزا» الوطن...

كانت الممرات الضيقة لزجة، نتنة، تكاد جدرانها تتصدع لتخرج آهاتها وتنهيداتها على المكشوف، كانت كحلى بالسياسة و«بالموناليزا» إياها، وجع القِدم يجينها بعض الشيء، يقعرها بعض الشيء أيضاً، لكن السيء

(*) الكِسرة: الخبز المصنوع في البيت من السميد.

فيها والجميل معاً، أنها جدران حي شعبي في الوطن، وأنها كل ما يثير الحزن فينا، وكل ما يثير فينا الحنين...

اليوم لم يبدأ جميلاً معي،

تنفست تلك العفونة وأنا أضغط على صدري، شعوري بالقيء كان يتزايد، يتناسل في جواي، لتطفو الرائحة من أعماقي نتنة... هنا بيت العاهرات... أقصد «بيت المواعيد»، وها هو الطابور أمامه، يشبه طوابير الزيت أو طوابير الخبز، أو طوابير الزلابية في رمضان، لا فرق بين الخبز والجسد هنا، كله قوت، كله يباع ويشترى وكله واضح مثل شريط سينمائي جريء...

هنا في هذا البيت غرف من ذوات النجمة الواحدة، وذوات النجمتين... إلى ذوات الخمس نجوم...، وهنا أيضاً النظام قاسي يُقدم الجسد مقابل الخبز، وهنا المال والسياسة وأسرار المجتمع تُقَدّر قبل أو بعد وجبات الجنس، هنا يختفي أصحاب البدل البراقة والأحذية المستوردة حنيناً إلى ما كانوا عليه...

في الممر ذاته اصطدمت بوجه مطلي بالألوان، يخرج من باب مدفون في الأرض؛ عارية النهدين كانت صاحبته، فزعة النظرة، صارخة الملامح، أزاحتني من طريقها بقبضة مثقلة بالأساور، وهرولت تبتلعها زوايا الحي، لم أر أحداً يلاحقها، وبدا لي هروبها علامة خوف...

يومي لم يكن جميلاً، لقد افتتحته بالقاذورات تماماً كما كان يقول «كمال الهلس» كمال الكلب، كم أكره ذكراه، وكل ما في هذا الحي يشدني إلى صورته بوضوح، نتونة فمه تلفحني، سترته «الشُّنَغَايْ» المعبأة بأثقال عائلته تحدد موقعه في هذا العالم؟ إنه تحت، تحت أقدام الجميع، تحت جحور النمل، تحت، تحت، على السطح الملامس للجحيم، وفي تلك الفقاعات التي تغلي، أو في لهيب الحقد والغضب...

تحضرني صورته وهو يحدثني عن وحم والدته وعجزه عن تقبل وضعها وهي حامل. كان يسألني: «كيف حدث ذلك بحق السماء؟». وحين أجيبه: «تلك مشيئة الله» يعقب بعصبية: «دعي الله في مكانه»، وفي اعتقاده: الله له عرش في السماء، ولا ينزل إلى

الأحياء التي تشبه حيه، ولا إلى أحياء بارونات الخبز والزيت... والأرواح.

ـ أيها المسكين إن فلسفتك فاشلة، لن توصلك إلى مستقر...

ـ كنتُ أعتقد أن الله غير موجود، كنت مؤمناً أن والدتي حين تصلي إنما تفعل ذلك من أجل والدي، أو من أجلي، غريب منها ذاك الخضوع لشيء لا تراه...

لم يكن يرى إلاّ نفسه، لم يكن مهذباً، لم يكن شيئاً،

وكثيراً ما وصفته «ابن زبالة» وكان يضحك.

كانت الأزقة تسخر مني، الزقاق تلو الآخر، والأبواب الباهتة توحي لي بالضياع، و«كمال الهلس» مجسداً في كل تلك البيوت. صرت ألهث من شدة الحر والتعب، وصرت أشعر بالقرف من هذه المهمة الضبابية التي أسندت اليّ؛ البحث عن الراقصة «ميمي».

«ميمي» بلا لقب، بلا عنوان، وبلا صورة، في

حي يشبه الوطن في اتساعه وفي فوضاه.

سألت أطفالاً كانوا أمامي، فروا على وقع الاسم...

سألت عجوزاً مرت بقربي، فلم تعرني اهتماماً، أعدت السؤال رافعة صوتي أكثر، تحركت ملاءتها، وبدت يدها كعصاً من الخشب المنخور بالسوس، تهتز، وتشير لي أن أذهب، أو أن أغرب عن وجهها، هذا ما هو أقرب لتعبير إشارتها، أما شكل عينيها فلا أنساه، أسود باهت يسبح في هلام أصفر، والغضب فيهما كالعساكر في حالة حرب. تراجعت إلى الخلف، تلقفني الجدار، استيقظت الشعارات من عليه، زحف السواد على جسدي، حاصرني. وكان الحصار قوياً عليّ، أغمضت عيني، وضغطت على أسناني، كنت أتمنى التلاشي للهروب من تلك الأشياء الغامضة التي بدأت تتحرك... حين بدأت أفتح عيني فاجأني الزقاق مكتظاً بأصناف من البشر، يتقدمون في صمت جنائزي، تقدموا تقدموا، الأيدي تبحث عن الرطوبة في جوفي، الشفاه تبحث عن الكلمات، الطوفان يغمرني، يشملني، يجرفني، يجرف بقايا السؤال العالق

في صدري «أين ميمي؟... ومن تكون...؟

الذي حدث، أن هؤلاء القادمين تطايروا فجأة، انفجروا، تبعثروا، التصقوا بالشعارات، بالروائح، بالأشياء التي لم أفهمها، والتي جردتني من وزني، وأفقدتني توازني... ميمي... الكسرة... والحيطان... وأنا فوق هضبة تتحرك. كانت يد مملوءة بالأساور تمتد إلى عنقي، كانت عينان التهمهما الكحل تذرفان الدموع، كحلية حارة مالحة، زحفت على الخدين لترسم قلباً ممزقاً بالطول، كان المحيط هائجاً من الخد الى الخد، وكان الصدر قد تشقق من تشبعه بالملح، وبين الشقوق كان يستقر عنقُود من الذهب، نقشت عليه حروف اسمها «ميمي». تأملتها، حاولت تمزيق الرداء الضبابي عنها، لم أستطع، كانت تهوي، والشعارات تقفز من صدرها ومن الحيطان، ظلت تهوي... قفزت، تخطيتها، تعثرت قدماي بأجساد أخرى كانت تهوي، ومن تحتها حارة «كمال الهلس».

قسنطينة-26 سبتمبر 1992

القردة تعود من كاليفورنيا

حينما تقدم لطلب يدي، قيل لي إنه رجل محترم ومثقف عاد من كاليفورنيا بعدما حصّل شهادة الدكتوراه (وأنا لم أُحصّل شيئاً بعد). قيل لي، أيضاً، إنه وسيم وإنها... أُوه! لا داعي لذكر كل هذا... كل ما في الأمر أنني رفضت (وبشدة) أن أتدخل في الأمر سواء بالايجاب أو بالسلب لأنني فتاة مؤدبة ومطيعة (أو هذا ما كنت أرمي إليه) ولأنه هو نفسه ترك كل هذه الأعباء على والديه.

وتمت مراسيم الخطوبة ولم أر وجهه بعد، ولم أحاول فعل ذلك ولو مرة واحدة. ولكنه حاول الاتصال بي مرتين أو ثلاثاً (لا أتذكر جيداً) وكنت في كل مرة أتهرب من الرد عليه لأنني بالطبع... فتاة (مؤدبة)؛ ولكنه اليوم فاجأني وأنا في طريقي إلى المكتبة. شاب تبدو عليه علامات النشاط والحيوية،

أنيق لدرجة أوحى إلي فيها أنه (مستورد)، أوقفني محيياً مبتسماً فلم أرد عليه... (لم أكن أعرفه بعد). تجرأ في تلك اللحظة وعلامات الغضب بادية على وجهه (النظيف) وأمسك بذراعي،

ـ يا لك من وقح (شتمته، وكدت أعطيه ضربة بحقيبة يدي).

ـ أهكذا علمك أهلك كيف تتعاملين مع زوجك؟

... ولم أشأ أن أذكره أنني لست زوجته بعد، لأنه ابتسم مستحسناً رد فعلي (بينما أخفيت أنا ابتسامتي). وذكرته أننا لم نتقابل من قبل... (كدت أنعته بالمجنون لولا بداهتي) المهم كان متفهماً. خيمت علينا لحظة صمت كنت فيها خائفة أن أخطىء أمامه إذا ما زلق لساني بكلمة. نظرت إليه عَلّه يبادر بالكلام فألقيته يتفحص وجهي بعينين جائعتين، تنهدت وحركت كتفي بعفوية عسى أن أستفزه لأن الملل كان قد تسرب إلى نفسي ثقيلاً ورحت ألعن في قرارة نفسي هذه الصدفة المشؤومة.

وأخيراً:

ـ وددت لو نتحدث

ـ لدي بحث، عليّ أن أنهيه اليوم.

ـ نؤجل اللقاء، ما رأيك؟ غداً؟ غداً صباحاً، أنا يناسبني الوقت (ولم يعطني فرصة للرد حيث أردف) الساعة العاشرة هنا.

وانطلق مهرولاً، كدت أخطو خطوات إلى الأمام لأكمل طريقي لكن: (نؤجل اللقاء... ما رأيك؟ غداً؟ غداً صباحاً).

هذه كلماته، ثم هو يناسبه الوقت، أمّا أنا فلا. وجهه شابته بعض البقع (غير النظيفة).

ـ تباً! لماذا لم أنتبه، كان مسرعاً نحو وجهة ما، لقد تخلص مني ولست أنا من تخلصت منه.

خجلت من سذاجتي، شعرت أن جنوني يطاردني... شيطان ما وثب وسط أفكاري، راح يزج بها في مسار واحد!

ـ الحقي به،

وبدا لي (الشيطان) بابتسامته المُحفزة مشفقاً عليّ.

تساءلت: ـ وماذا لو رآني؟

ـ ها ها ها...

قهقه بصوت مزق وجومي ثم صرخ في وجهي

ـ غبية...

سأتحرك!

وتحركت أقتفي أثره وقلبي طبل في يد مشعوذة اختلطت دقاته بين فزع وحب للاكتشاف... تعاويذ مشعوذة قذرة تنفخ جنوني، وأنا كالمسعورة عيناي تقفزان بين الرؤوس لتلتصقا بشعره... (النظيف).

ـ اللعنة عليك، دكتوراً عاد من كاليفورنيا. أعلموك أيضاً كيف تنساب كالحوت متخللاً سيل البشر... عليك اللعنة...

زاد في سرعته بعض الشيء، أخرج يده من جيبه، أمسكها (مثلما أمسكني) قَبَّلَتْهُ وقَبَّلَهَا... أربع قبلات (تذكرت أنني لم أصافحه) شقراء مزيفة، وجهها داكن ملطخ بالأصباغ (سمة عالمية لكل العاهرات) تدحرجت معه في سيارة أجرة.

ـ سيارة أجرة. . . عليك اللعنة يا خبيث النفس

أوقفت سيارة أجرة، دسست نفسي فيها ويدي تتحسس ما تبقى لي من مصروف في حقيبتي، مددت رأسي مثل أفعى تستعد للهجوم، أتحدث مع السائق بين الحين والآخر ليركز معي ومع السيارة التي تسبقنا، أحسست أن ما في دماغي سينبثق من أذني، حرارة جسدي ترتفع، قلبي أكاد أبصقه، و«سيد كاليفورنيا» ينزل، تنزل معه. . . وأنزل أنا أيضاً، يندفعان في عجل عبر بوابة مزخرفة وأدخل أنا أيضاً. . .

(ظننت للحظة أنني خارج الوطن)، البوابة تفتح على الفردوس، المكان ساحر. . . لفحة أفيون أرخت أعصابي للحظة لكنني توقفت فجأة حينما صدمت بوجود قردة أمامي، عشرات القردة، بل مئات. . . في نفس اللحظة أبصرتهما غير بعيدين عني، يتعريان، يتبادلان بعض النظرات، بعض البسمات في صمت جنائزي ثم يسيران في هدوء مهيب إلى بحيرة فضية، يزحفان بخشوع إلى منتصفها، يمارسان طقوساً أجهلها. . . شعرت بضآلتي، وبالدم يتكلس في

عروقي، صلبة أتحسسها (عروقي) تطوقني مثل أعمدة اسمنت... يطوقها، يتمايلان، يقتربان من بحيرة عكرة، يغرقان فيها وفجأة يطفوان على السطح ملطخين بالطين (بالرذيلة)... كلاً بل بالشعر يكسو جسديهما... كانت صورتهما تتبين لي شيئاً فشيئاً...

ـ قردين صارا... يا للهول... إنهما قردان

(ينتبه)

يجتاحني الخوف عاصفة تقتلع رجلي المتجمدتين اندفع نحو وجهة ما والبلل ينبثق من جسدي، من فمي، من عيني، من السماء...

ركضت، ركضت ولم أدرِ أنني بلغت البيت حتى سقطت أرضاً وارتطم وجهي بالبلاط البارد عند أقدام والدي، كانا يحاولان حملي بينما كنت أردد بصوت منهك ومتقطع:

ـ لن أتزوج هذا القرد... (وبقيت أرددها) بينما صوت الوالدة يصلني خافتاً، مبسملة، تردد بعض الكلمات:

ـ أرأيت عيون الحاسدات يا حاج... حسدنها في

ابـن الحـلال، يـا لـطـيـف... يـا لـطـيـف... يـا لطيف... يا ستار...

(*) ملاحظة: أعتذر لكل العائدين من كاليفورنيا، فالقصة من صميم الخيال.

قسنطينة-5 أكتوبر 1991

تمثال القلعة

ملأت رئتي بأريج الزرع وأنا أنزل من سيارة الأجرة أمام المنعطف الذي يؤدي الى القلعة. صاحب السيارة اعتذر لي عن عدم إيصالي إلى غاية المكان لأن الطريق غير آمنة منذ مدة ولأنها أيضاً رديئة، تأملتها من بعيد، لم تتغير، كل شيء كما كان قبل ست عشرة سنة. حتى السحابة التي تزين السماء لم تتحرك، وأسراب السنونو لم تصل إلى أعشاشها بعد، قبّلتُها قلعتي برموش عيني، سحبتها في نفس واحد لتستقر في القلب، في خلايا الكيان، وأحسست بها تنعش المشاعر التي أنهكتها الغربة لتستيقظ فيّ الطفولة كبيرة مكابرة، وتعصف بي الذكريات المراهقة...

تستوقفني شجرة الصنوبر العتيقة تحمل اسمين معاً «سليمان ونجاة»؛ عيناه ما زالتا هنا تسكنان الظل الوارف مغرورقتان بالدموع («لماذا نحن مجبرون دائماً

على تقبل قرارات الكبار؟» «ولماذا نحن مجبرون دائماً على إسقاط أمانينا إلى الأرض لأن أمانيهم تعانق السماء؟».

«سأكتب لك كل ليلة»،

«وسأحترق بين سطورك، لأن الكلمات لن تمنحني دفء يديك»

«دعني أستبدل يديك بيدي، لنغمض أعيننا، ونتضرع إلى الله، بكل ما نملكه من حب في قلوبنا، ليحقق المعجزة»).

بكيت واحتضنت الصنوبر العجوز البائس، وشعرت بفروعه تنحني لتحضنني برفق. رفعت بصري إلى الجذع المحفور منذ سنين وسألته هل سأجد سليمان في القلعة أمام المسجد العتيق المحاذي لبيتنا ينتظر عَوْدتي، يسترق النظر إليّ، يبتسم حين أنظر إليه ثم يمضي.

هاجمتني الذكريات كثيفة كغيوم يناير الحزينة، جعلتني لا أنتبه إلى أن أثر الطريق المعبدة اختفى، وأن الأعشاب والأشواك ملأت كل الدروب، كانت شرسة

تنهال عليَّ بلسعاتها من حين لآخر، غيمة الذكريات بدأت تنقشع عن مخاوف تسربت سريعاً إلى قلبي، أما يزال في قلعتي بشر؟ وهل سليمان ما يزال هناك؟ في كل مخاوفي كانت صورته تنبض بالحنان نفسه، إنه هناك، حتماً هناك، قد لا أجد أحداً إلاّه، لأنه وعدني بالانتظار، لكن الخوف بدأ ينقض عليَّ كوحش جائع راح يفترس الصورة بنهم، وبدت لي الطريق المؤدية إلى القلعة شبحاً متسربلاً بالجراح، وشعرت بوجود أشخاص يتهددونني في كل لحظة، وبملامح سليمان التي كانت تغطي صفحة الأديم، امتزجت بأغنية صرصور كئيب لتقلع الجرح المدفون في حلقي.

(«تراها قتلت قلعتي، وصارت ضريحاً للأحبة؟»

«سائق سيارة الأجرة قال لي إنَّ الطريق غير آمنة ماذا يقصد. . . ماذا يقصد؟»)

وثب عملاق أمامي فجأة، ولحقه آخر، كلاهما ملثم وفي يده سلاح صرخت «ماذا تريدون؟»

كمموا فمي، وأصر أحدهما على توجيه فوهة سلاحه قريباً من أنفي وأمرني بالتحرك، حدثاني

بخشونة وأخبرانني بأنني سأمثل أمام رئيسهم أولاً، ثم ينظر في أمري.

قلعتي ماتت إذن، ومات كل الأحبة، وبعد لحظات سأموت على أيدي قطاع الطريق هؤلاء، وأدفن هنا، . . . هل كان قدري قطع آلاف الأميال لأموت لا غير؟

تمرغت في هواجسي المشبعة برائحة الموت حتى دخلت القلعة، لمحت في الساحة الكبيرة خيال رجل وصلتني أنفاسه بسرعة كالبرق، اختلطت كل المشاعر في داخلي، انفجرت كبركان خمد منذ دهور، احتوتنا عاصفة هبت من جوف الأرض، اقترب أكثر، ثم أكثر، غُضتُ في خضرة عينيه وخاطبته بصمتي المذبوح.

ـ «أنت»؟

فك الرباط الذي يكمم فمي، وكان صوته يصلني من أعمق أعماقه

ـ «عدتِ»

ـ «عدت لألقاك».

سكت، زَمَّ شفتيه، رفع عينيه إلى السماء، أغرقني صمته حتى كدت أختنق وأنا أتطلع إليه بشوق السنين.

ـ «تكلم لماذا أنت صامت؟».

ـ «بعد كل هذه السنين أي البدايات ستذيب غربتنا؟».

ـ «نحن لم نتغرب عن بعض»،

ـ «الأيام صنعت غربتنا»،

ـ «أخطأت إذن»،

ـ «ليس كثيراً، صرت قاطع طريق».

وقهقه طويلاً، وقهقهت القلعة، ودوى الماضي في كل أركان جسدي منشطراً في تلك الساحة المهجورة كجثة ما تزال الحرارة تنبعث منها، نظر إلي مرة أخرى واستطرد:

«قانوني هو الساري هنا»،

«لكنك قتلت القلعة»،

«هي انتحرت بعد ذهابك»،

«ولماذا تنتحر القلعة من أجلي، وأنا كنت أعيش ملء جوارحي بأمل مجنون؟».

«أخطأتُ إذن؟»،

«أخطأتِ!»،

«أنا كاتبة حكايات، أحلم وأكتب وأبيع الكلمات، أين الخطيئة في هذا؟».

لم يجبني، سكت وهو يمسك بيدي، أراد أن يزرع الدفء فيهما، لم يجد في حوزته غير الصقيع، سحب إحدى يديه وأشار إلى ركن تراكمت فيه جثث متدعصة، تراجعت إلى الوراء بخطوة مهزوزة، وصرخت...

الموت آخر شيء يمكن أن يروق لكاتبة حكايات حالمة.. إنه مرعب، وبهذه الطريقة لا يمكن أن يعبر عن شيء آخر غير ضآلة الإنسان.

أرغمت نفسي على النظر إلى عينيه مرة أخرى، اصطدمت بحجرين كالزمرد، برأس منحوة بدقة، بجسد سليمان لكن من حجر لمسته، كان صلباً، بارداً، نظرت حولي، لم أجد أحداً. كنت أنا والجثث

والريح. . . وتمثال سليمان. أنا، وتمثال سليمان في قلعة العمر.

قسنطينة 26 فيفري 1992

زنقة المسامير

حين تعود زبيدة من العمل مساء يكون مصطفى قد نهض من نومه، يلتهم لقمة على عجل ويقفز خارج الدار ينتظر مرورها في زنقة ضيقة تسمى «زنقة الكُوزْدُونْيِي» نسبة إلى وجود محل العم محمد الصالح الإسكافي منفرداً فيه.

يقف على بعد خطوات من المحل متكئاً على الحائط، واقفاً على رجل والأخرى يطويها قليلاً ويصقلها بالحائط صقلاً، يُخرِج مشطاً رقيقاً، ويظل يمشط شعره من الجانبين إلى الوراء وهو يصدر صفيراً على إيقاعات أغاني «خوليو إيغلزياس»، يتوقف أحياناً بطريقة مفاجئة يمد رأسه إلى الأمام كسلحفاة تستكشف الطريق وحيث لا يبصرها من بعيد يكمل معزوفته وتسريحة شعره أيضاً.

وكالعادة تطل عليه كليلة القدر، مشرقة وهاجة، تمشي في خيلاء وتصَنُّع، ينزل الدم الى قدميه دفعة واحدة ليرتفع مرة أخرى كبركان يكاد ينسف تسريحته ويجرف ما تحمله من طبقات الهلام «يتلخبط» يَدُسُّ المشط في جيب من جيوبه ويعتدل في وقفته كحرس جمهوري.

تتقدم... تتقدم... تتوقف أنفاسه... تنقطع كوابح قلبه، يصطنع البحث عن شيء ما، ينحني ليربط خيوط حذائه، تمر ولكنها تمر كالنسيم؛ وفي هذه اللحظة يكون يومه قد بدأ وانتهى، وعليه الآن أن يخاطبها في سريرته بلهجته العاجزة عن تصوير تعاسته، وتصوير جبنه الخارق للعادة، يقضم شفته السفلى ويتمتم بأشياء كثيرة تشبه العتاب واللعنة، يحاسب نفسه، يوبخها أحسن توبيخ، يبصق على جدران الزنقة، وهو أصلاً يتخيل نفسه جزءاً منها، يوبخها هي الأخري لأنها سبب أساه ولعنة الخرس التي تلاحقه كلما قرر الوقوف أمام زبيدة والاعتراف لها دون لف ودوران أنها أمل حياته (أو شيء من هذا القبيل).

ينتهي به السير دون أن يدرك أنه قطع مسافة طويلة نوعاً ما إلى المقهى الذي يعج بالشباب والشيوخ والكهول، يلقي بجسده المثقل بالهزيمة على كرسي يحجزه له الأصدقاء دون أن يلقي عليهم التحية وهم عنه مشغولون بلعبة الورق، لكن أحدهم يخاطبه ساخراً:

ـ وَاشْ سَمّرْتْ صَبّاطَكْ وَلاّ ما زَالْ كِيمَادَاهْ؟(*)

يرمقه بنظرة حاقدة ولا يرد عليه بينما تقهقه الجماعة استحساناً للسؤال. ينحني عليه عادل ويدلق في أذنه ما يعيد لملامحه الابتسامة:

ـ سننشرب الليلة من أجلك، ما رأيك؟

وقبل أن يجيبه مصطفى يضيف ما يثيره أكثر:

ـ ستكون معنا راقصة أحضرها وليد من العاصمة، سبحان الخالق تشبه «إستر»(**).

(*) «هل وضعت مسامير لحذائك أم ما يزال مثلما هو» (باللهجة الجزائرية العربية).

(**) إحدى الشخصيات اليهودية البارزة في قصة الجاسوس المصري رأفت الهجان.

يسحب نفساً من لفافته الحشيش المحترقة بين أصابعه ثم يضيف: بل إنها «إستر» نفسها (يضحك ثم يواصل) إنها إسرائيل تضرب على كل الجبهات، لها عَيْنَان كالسحر... ولكن مصطفى يشعر بالقرف، برائحة الخمر ممزوجة برائحة البصل تتسلل إلى أنفه من جوف سهرة مبرمجة بعد ساعات، بالعرق يغسل أعضاءه نتناً كجيفة طهاها القيظ.

يحملق في رواد المقهى بعينين أذبلتهما رائحة الحشيش والذل معاً.

ينتصب في تثاقل مصدراً حفيف ملل، ينظر إلى أولئك الأصدقاء من فوق، يتفحص رؤوسهم؛ لا شيء غير الشعر يكسوها.

يفرك شعره قليلاً ثم يخرج من كتلة الضجيج وكأنه خرج من جُحر نمل تسوده حالة الطوارئ لكن صراخ مجموعة من الأطفال يستقبله بحدة أكثر، بعضهم يلعب في مياه المجاري الطافية على السطح والبعض يلعب بكرة. في ركن ما طفل يبكي يستهلك بعضاً من براءته خارج البيت ليعود إلى البيت رجلاً صغيراً يقلد أباه، يتأمله ملياً ثم يردد محدثاً نفسه: ـ والله

عَنْدَكْ الْحق، ابْكِ مَا دَامَكْ صغير ابْكِ!

يشق ممرات الزنقة النابضة وهو يشعر بيدين خفيفتين تضغطان على حلقه وسباب امرأة وصراخ أخرى يمزق الصور التي أمامه ببشاعة فظيعة. يغمض عينيه وقدماه تتحركان بطريقة آلية. تبدو له زبيدة في هالة مضيئة جميلة مثل سماء الربيع، يفتح عينيه بعد شريط من الأحلام وهو يجد نفسه مرة أخرى أمام محل العم محمد الصالح الإسكافي يصافحه في هدوء، ويسرد عليه للمرة الألف قصة حبه المستحيل والعجوز يصغي إليه باهتمام كبير وكأنه يسمع القصة للمرة الأولى، ويظل يشرح له كيف أن الإنسان لا يختلف عن غيره من الحيوانات إلاّ في امتلاكه عقلاً ولذا عليه أن يتعامل فيما بينه بالعدل. يحمل مسمارين من الحجم الصغير جداً، ويشرح أكثر للعم محمد الصالح كيف أنهما لا يختلفان، وكيف أن زبيدة لا تختلف عنه ولا هو يختلف عنها فهي بشر وهو كذلك، يتوقف فجأة عن الحديث ثم يجهش بالبكاء، وهو يشكو ظلم المجتمع وكيف أنه صنع الفروق بين البشر وهي أصلاً غير موجودة؛ يقوم العم محمد الصالح ويهدئ من

روعه ثم يضمه الى صدره بفيض من الحنان. بعد هنيهة يسكت ولكن الحزن يحفر في عمقه بهوس. يترك الاسكافي بعد أن يملأ جيبه بحفنة من المسامير الصغيرة، ويخرج إلى الزنقة مرة أخرى يجوب أزقتها حتى يدركه الليل، يتذكر السهرة المبرمجة، يسرع إلى بيت عادل يجد المأدبة قد بدأت يحاول أن يطرد ضبابة الحزن من عينيه، يقصف الجو بقهقهة كالرعد، يرتمي على زجاجة فتحت للتو، يغرس عنقها بين شفتيه، ويمتص جرعة تفجر الدموع من عينيه، تهزه رعشة النشوة فيرتمي بهيكله المتوجع على أريكة إلى جانبه يمد يده إلى جيبه، يتناول بضعة مسامير يرميها في فمه يُقَبّلُ فم الزجاجة بشغف كالمجنون يبتلع جرعة «فودكا» ويبتلع معها المسامير، يطلق صرخة، الجماعة ينهشون جسد «إستر» يقدمون لها الكؤوس، تشرب، يشربون، يأخذ مصطفى حفنة أخرى من المسامير ويفرغ بقية ما في الزجاجة ليجرف المسامير عبر حلقه ويغرسها في داخله، تبدو له الراقصة شعلة نار والبقية وقود وحطب، يصرخ، تذوب الصور في ألسنة النار تستمر السهرة حتى الفجر. في اليوم التالي يصحو

الجميع على سكينة الموت؛ عينان جاحظتان، وفم مفتوح تكلس فيه الدم، تراءت للجميع صورة الرب الغاضب، هرعت «إستر» بثوبها الشفاف إلى الشارع تولول كمن أصابه مس من الجنون، عادل ظل ينظر إلى الجثة والصدمة تشل قدميه، سكان الزنقة الشغوفون بمعرفة أخبار بعضهم البعض شدهم العويل الصباحي المفاجئ؛ اندفع نحو الدار أولئك القريبون منها، فُتِحَت الشبابيك، تساءلت النساء، رسمت حركاتهن مزيداً من الأسئلة، وظلت الدار ثغرة تبتلع كل ذلك الفضول المتجمع عند بابها، اختفى الجسد البض بالثوب الشفاف، اختفت نشوة الخمرة، وغمزات الشهوة وانتهت مسرحية الفرح المبرمج من أجل مصطفى بقبضات بوليس...

وانتهت الغوغاء بعد برهة من الزمن ليعود الهدوء الى الزنقة، يأتي المساء، تعود زبيدة، تمر كالعاصفة تعبئ الأفواه بالهواء، تعبر «زنقة الكُوزدُونْيي»، هادئة مبتسمة العينين مثل كل يوم، «زنقة الكوردونيي» لم تكن بالنسبة لها أكثر من ممر تعبره كل يوم نحو بيتها... وكفى!

قسنطينة، 30 ابريل 1992

عشاء مؤجل

أوشكت على أن أبوح لك بكل شيء!

أوشكت على التجرد من أوسمة وقاري التي قلدني إيّاها أكثر الناس جهلاً بدفاتر عمري، أكثرهم جهلاً بكل ما كتبت، وكل ما سأكتب...

كنتَ أمامي بعد عهد من الفراق، وكنتَ كالآخرين تصفق مثلهم، وتثني علي بعبارات الاعجاب دون أن تكون تماماً مثلهم، كنت تعترف أنني انتصرت، أو أنك انهزمت أمام تحدٍّ كان بيننا... حلّقتُ في خطوط وجهك، أتفرس كل تلك السنين التي عشتُها أنا في خلوتي، وعشتها أنت في بهرج مهرجاناتك...

بحثت عن بريق أغنيات الحب في صمتك، تلك التي كنت ترددها لي، وكنتُ أبداً أرفض أن أسمعها

بصوت من يغنيها، لم أهْوَ غير صوتك، ولم أهْوَ غير حزنك اللامفهوم، وها أنت اليوم أمامي بصوتك الذي عهدت، وحزنك الذي صار مدينة تستفيق بعد يوم ماطر وعاصف بحركة أقل وحذر أكثر.

ها أنت بهالة ماضيك حاضراً أمامي، وكأنك تلغي الزمن لتستعيد ما فات، بأسئلة لم أجبك عنها قط، ولم أحضّر لها أي إجابة بعدُ فلم أكن أتوقع أن العالم صغير، وأنه سيجمعنا في أحد مفترقاته. ها أنت تتحدث عن مدنك التي تحترق مجدداً وكأنها لم تخمد أو كأنها احترقت نكاية بكل عواطفي، فبعد افتراقنا حلّ عليها السلام، وها هي قبل يومين من لقائنا يحل عليها شتاء القنابل ليؤجل الربيع قليلاً، وها هي الأمور تعود تماماً إلى ما كانت عليه ذات نيسان مضى... «نيساننا» الذي تحتفل فيه الأكاذيب بأعيادها، والذي لم تغير فيه أرقام السنين شيئاً، وها أنا الآن أمامك أضحك ملء حزني على موعد لن أتمكن من استغلاله لشرح نفسي، كما لو أن العمر لم يتحرك قَطّ.

أرنو إليك، وقد أجبرني وضع لا تغير فيه الثرثرة

شيئاً أن أصمت. تقول لي: ـ بعد بيروت سينتهي أمر العرب (مقولتك نفسها...) وقد كان بودي أن أقول لك: «حين انتهى العرب اهتزت بيروت»، ولكني اختصرت تعبيري في جملة أخرى:

ـ بيروت لم تنته.

قلتَ: ـ كثيراً ما تنتهي، تموت... ولكنها تقوم... كالمسيح.

وكنت أعرف مسبقاً أن تعليقي سيفتح النار التي كانت دائماً تفسد لقاءاتنا ولكني قلته لك:

ـ المسيح لم يمت... وبيروت كذلك.

وجاء ردك طاعناً لأنوثتي:

ـ منذ عشرين سنة كنت صبية، وكان عنادك جميلاً يزيدك سحراً، وكنتِ تثيرين شهيتي لتحتدم الحرب بيننا، وتنتهين في أغلب الأحيان صريعة بين أحضاني، وأنتهي نادماً أمامك لا تكفيني دموع الدنيا لأرضيك، ولتنسى زلاّت كلامنا...

صححت شيئاً من كلامك مع نغمة عتاب:

ـ لتنسى (زلاّت) كلامك فقد كنتُ دائماً واثقة مما أقول، وهذا ليس عناداً، فأنا لم أعد صبية كما أقررت حالاً.

قلتَ: ـ تقولين الأشياء، دائماً كما تكتبينها بحروف صغيرة تفضح انفعالك وتضايقك من رأي الآخر، أنتِ بالفعل لست صبية، أنت مدينة أتعبها القصف والاعتداء.

قلتُ: ـ لا أظنني أنحدر من سلالة المدن، أنا أنحدر من سلالة الإنسان الذي يهدر دمه وكرامته أكثر، أنا أنثى.

قلتَ: ـ كل المدن إناث...

قاطعتك: ـ أعرف أنك قوي في اللغة، ولكنك ضعيف جداً في الوفاء. تغيرت سحنتك وملأت الغيوم عينيك، دونما سبب مقنع حسب ظني، ففي كل الحالات لم أقصد أن أثير أية تهمة قديمة. ما أردته هو تذكيرك أن المدن لا تعني لك شيئاً، وأنك في الغالب تفضل إناث هذه المدن على المدن نفسها... وأنك كثيراً ما كنت تغير إناثك.

لم تكن تعرف أن الصمت الذي حل بيننا فيما بعد، رفع نسبة ارتباكي من الركبتين إلى الحلق، وقد وددت أن أغادرك فلم أقو على الوقوف، ولم أقو على إيجاد كلمة واحدة أحول بها مسار الحديث نحو وجهة ما، غير وجهة شروخ القلب الذي ما يزال واقفاً بانتظارك...

وكدت أعلن لك هزائمي كلها، وأبسط أمامك مدخرات ذاكرتي لتنتقي منها الأشياء التي طالما كانت ألغازاً لا تفهمها، وكانت كل عقدي التي شلتني لأكون امرأة (عاقلة) تنسى قضية أنوثتها في عمل مستقر وزوج وأولاد... لا كان لي عمل مستقر، ولا زوج، ولا أولاد... وكثيراً ما كنت أصحو على حقيقة واحدة وهي أنني احترفت الهروب من مواجهة جسدي فعلقتك بين الرفض والمناداة لتظل لي فيما لن أكون لك أبداً، ووضعت نفسي فوق ذلك في واجهة مقابلة لمجتمع يتسلى بالفرجة عليّ، يترقب الكبوة المنتظرة، لامرأة تعيش (شذوذها) برفض الواقع كما يريده قِدّيسو الأرض لا قدّيساتها... قلتَ وقد انتظرتني طويلاً لأكسر الصمت الذي لعبتُ لعبته:

ـ إلى متى ستظلين متوحشة (قلتها كالنسيم الذي يحمل على جناحيه رائحة تشك الأنف) يا حوائي فِيمَ ترغبين بعد أن أخرجتنا معاً من الجنة، لِمَ تضرمين النار في لقاء اشتقنا إليه كثيراً... (صمتت قليلاً ثم أردفت) تتحدثين عن الوفاء يا عذراتي؟ أنا لست بطلاً من أبطال قصصك ترغمينهم على الخيانة لتعاقبيهم لا غير، تراك تتلذذين برؤيتي رجلاً بلا (وطن) وبلا (هوية) وبلا امرأة. هل تعرفين أنني في الأخير سأستسلم لك لتغرسي خناجرك في الروح التي تتجمع أشلاءً من أجل لقياك! لقد جئتك من أقصى الدنيا لأهنئك على ما حققت، وعلى المواجهة التي واجهت على النجاح الذي أحرزت... قلت لنفسي وأنا أقرأك بعد ما غبنا عن بعض من سنوات: ربما أدركت معنى الانتماء أخيراً أنت التي صمدت هنا كل سنوات الخراب والتناحر والاعتداء...

قاطعتك: ـ قلتَ لنفسك: هذه هي مدينتي الآن جاهزة وقد استوت على نار أفكاري، وهذا هو الوقت المناسب لأدخلها دخول الفاتحين، كم تخلط بين الأمور، فجنونُك ما يزال يتنقل بعكاز بين دولة

ودولة، بين قرار وقرار، وبين تأجيل وتأجيل، أنت لا تفهم أن وسيلة نضالي السلمية لا تخصك في شيء بقدر ما تخص انتمائي. أنا لا أكتب من أجلك، ولا من أجلي، إني أكتب عن الأحلام الصغيرة للوطن، عن أحلام الأطفال التي لا تتجاوز في مساحتها حضن الأم وزجاجة 7up، هذه الأحلام التي تقصفها البوارج والطائرات والدبابات... أما أحلامي أنا فهي على وشك أن تدخل سن اليأس...

ثم جاء الصمت مرة أخرى، دشّ بنا معاً في زجاجة فارغة، امتلأت بأنفاسنا، بالغضب الذي يحيل كلماتنا إلى مناسبة للأتفاهم؛ الغضب من الظروف التي اختارت لوجودنا موقعاً جغرافياً يؤجل عواطفنا ومطالبنا الطبيعية لموعد لا يجيء، الغضب أيضاً من التاريخ الذي غيّر مجراه أناس غيرنا، أو نحن ربما غيرناه، لا أدري، كل شيء في حياتنا يسلك الدروب الثانوية... ربما لأنها أطول...

فأجابني صوتك: ـ لا أذكر أننا تصالحنا في يوم من الأيام، (ثم ابتسمت).

وجدت أن ملاحظتك تستحق الابتسام، ابتسمت

أنا أيضاً وقلت لك: ـ كلما قررنا أن نجتمع، ينكب الزيت على الشارع الذي يفصلنا... قلت لي: ألا تظنين أننا ننتمي إلى أكثر المجتمعات رقياً لغةً وأدباً، فلِمَ هذا العجز فينا لإيصال أفكارنا لبعضنا البعض.

قلتُ: لأن مشاكلنا كثيرة،

قلت: لنعالجها،

قلتُ: فات الأوان، لأنها تراكمت علينا حتى صرنا كالرجل المريض الذي لا يرجَى شفاؤه...

قلتَ: أنتِ متشائمة...

قلتُ: لأتفاءل يجب أن أنسى كثيراً من الأمور.

ـ أوف! (قلت) إنسي إذن

قلتُ: النسيان هو المصيبة الوحيدة التي لا تحل بالأدباء.

ضحكت وقلت: النسيان نعمة وليس مصيبة.

قلت لك: مؤكد بالنسبة للذين يعيشون بلا وطن، وبلا هوية، وبلا امرأة...

قلت: ما تزالين لذيذة، كما أنت.

قلتُ لك: وما تزال مثيراً كما أنت.

قلت: هل تقبلين دعوتي لك على العشاء، في أي مكان تختارينه وفي أي موعد تحددينه.

قلتُ: أقبل.

قلتَ: أين؟

لم أجبك، ابتسمت، وهززت كتفي، ثم قلتُ:

ـ كثيرة هي الأشياء التي ستتغير، مستقبل العالم، كله سيتغير...

قلتَ مستغرباً: منذ قليل كنت متشائمة.

قلتُ لك: منذ قليل لم أتلق دعوة على العشاء من رجل حياتي.

قلتَ: لم تحددي الموعد بعد.

ـ قلتُ لك: حين يعدّل جزء هام من خارطة العالم.

قلتَ متأففاً: ... كم هو مؤجل.

سألتك: ـ التعديل أم العشاء؟

اجبتني: كلاهما

وقلت لك بعد لحظة صمت: ـ أصبت... أنا مدينتك التي أعياها القصف والاعتداء.

بيروت 24 أبريل 1996

الرجل العشرون على الناصية

كم كانت خائفة وهي تنظر إلى عينيه، تبحث فيهما عن بريق خيانة ما، عن شيء يشبه الغدر، أو عن ذيل كذبة ما. إنه الرجل العشرون في حياتها، وهي لا تستطيع أن تبوح له بذلك. إنه الرجل العشرون في حياتها، وهي تحاول قدر الإمكان أن تخفي ذلك. ما أرادته: رجل تغسل به ماضيها المتعفن بالخيبات وبالرجال. حين تكونت لها هذه القائمة بالرقم: عشرين، أدركت أن لا شيء يشوه شرف امرأة غير رجل، تماماً كما يتشوه شرف رجل بأخطاء امرأة.

أدركت أيضاً أن للزمن طقوسه، وأن اللعبة الرجالية مع امرأة السبعينيات انتهت، وجاءت لعبة المجتمع الآن...

كانت قد ناضلت من أجل الجامعة، تخرّجت، اشتغلت، أحبت وانطلقت، تحررت من قفص الأجساد، لكن ها هي الطريق الواسعة، المملوءة بالهواء والشمس بلغت إلى حيث تخلد الشمس إلى نومها، ها هو الظلام قد حل، والبيت فارغ، وهذا المخلوق ذو القائمتين لم يتخلَّ عن تَوَحُّشه... وفي النهاية؟ كان البيت أجمل لو أنه مسكون بضجيج العائلة، ولو أن القلب خلا من القلق والخوف من الشوارع المظلمة وأصوات النميمة، وأحكام المجتمع...

في النهاية أصبح الحب شيئاً تحلم به كل ليلة، ووجود مستقر للآخر إلى جانبها رغبة لا تقاوم،

أسرتها الرغبة، وخانتها التجربة...

في كل مرة يحلّق بها الحلم نفسه فوق حدود الحقيقة، في كل مرة يتراءى لها رجل يخيل لها أنه يعكس ذاتها، لكنه الاخفاق... وكم تختلط أسماؤهم عليها اليوم... تلعب الأسماء على رأس لسانها في كثير من المرات، يقفز أحمد بدل هارون، وعلي بدل سامي،

اليوم نظرتْ إلى عبدو بعينين مخطئتين، ألّفت قصة غريبة للتو حين أخطأت وخاطبته «بهاشم»، وكمن يعرف ملامح الكذب هز رأسه في لامبالاة، ورفع يده مشيراً لها أن هذا الأمر لا يهمه. لا تهمه الحكايات التي تشبه الحقيقة، وتشبه الوهم، لا حاجة لها لاستعطافه، كان هذا ما يفكر فيه، وما لم تكن تعرفه، أو تفكر فيه،

قالت لنفسها:«قد تكون فرصتي، سأختصر رجالي... سأختصر الماضي، في هذه الصدفة الجديدة...» طيلة الوقت الذي تقضيه في البيت، أو في الشارع، أو أمامه، فكرة صنع أحبولة لعواطفه تربكها، فما الذي يمكن أن تؤلفه لتكون صادقة رغم أكاذيبها، وتكون صريحة رغم ما تخفي،

إنه الرجل العشرون في حياتها، وهو يختلف عن باقي الرجال الذين عرفتهم، إنها لا تجد في عينيه ستائر الخدعة، ولا ترى دخان الأكاذيب، وكثيراً ما تراه طفلاً حين يحدثها بصدق عن كل ما يعشق في الدنيا، عن صوت فيروز، وشعر قباني، وهدوء الليل، وعمله. وكثيراً ما كان يحدثها عن عمله، ولا

ينسى في خلال الحديث أن يقول لها: «... وأعشق لون عينيك» كان يسعدها في بداية كل لقاء، وفي خلال كل اللقاء، ثم العذاب بعده، يحل عليها ثقيلاً، مشحوناً بالخوف، أو بتلك الأشياء المبهمة التائهة بين الضمير والغريزة والطبع...

كان يختلف عن الآخرين...

كان رجلاً بماض مرتب، وفوضى ماضيها لا تعنيه في شيء، ذكي، لم يعطِ لها فرصة لتستعطفه بكذبة ما، فظلت الكذبة تتأرجح بين تعابير اللسان، وظلت تتأمله كأنه مخلوق غير عادي جاء ليعذبها بنقائه.

الرجل العشرون، هو هذا الطويل الذي أمامها، والذي لا يكف عن الحديث عن أحلامه البسيطة، وعن بيت ومدفأة، وسهرات شتاء.

لم تفهم خلال هذه العلاقة لماذا لا يخاطبها بلغة الاختبار كما يفعل ذكور هذا القرن، لمَ لا يحاول فتح سجلاتها، لمِ لا يستعرض فحولها أمامَها... لم يكن مثلهم، كانَ عكسهم، لا يطيق تأجيل فكرة الزواج،

قال لها في آخر ذاك اللقاء: «إني مستعجل لبناء عالمي الصغير الذي طالما حلمت به».

صار ضغط نقائه كبيراً عليها، بحثت عن الهواء بفمها المفتوح واسعاً.

ـ آه. . . (صرخت).

ـ لماذا أنت نظيف إلى هذه الدرجة؟

لماذا هو نظيف؟ فيما حاول أن يستوعب السؤال، كانت قد ركضت نحو الشارع، لحقها، ثم توقف على ناصية الطريق، لقد ابتلعها الزحام.

ما يريحها أكثر رجل كالآخرين تسمع كذباته، ويسمع كذباتها.

باريس ـ صيف 93

أعراض خيانة

كانت بحيرة عينيه يجتاحها ربيع بكر، وكان خصاب أعماقها يخفي طفولة قفزت على ربوات النجاح بذكاء فطري، كان متعباً ولكنه لم يبح بذلك، وكنتُ متعبة وكانت أعماقي تبحث عن فتحة في القلب لتمزج الصورتين معاً...

كان الموكب رجالياً تقريباً، وكانوا كلهم يشبهون بعضهم، وذاك المساء التعيس لوحة مشتركة لكل وجوههم إلاّه هو، كان مضيئاً، وكانت (تاؤه) التي ينطقها ثقيلة بعض الشيء، لذيذة بعض الشيء، مؤلمة بعض الشيء (كتائي) التي تقيد اسمي في دفتر العائلة، وفي دفتر كشوف الشرف، وتجعل من القلب المملوء حبًّا (سريًّا) للحياة وثيقة رسمية يجب ألاّ تحمل أكثر من توقيع. لعليّ نسيتُ مأدبة الغداء التي دُعينا إليها جميعاً، وتناولت من كأس عينيه ما يكفي لإثارة

الأنثى المنوّمة فيّ، ثارت خشنة الطباع، بربرية الغريزة، أعياها الكبس على سنوات العمر المحجوز دوماً في هيكل الممنوعات.

كانت زلة نظر قد تكلفني زجّ باقي العمر في مؤبد كُحلي... و«بَايَة» وحدها كانت تحدث الرّجات في داخلي،

ـ «باية» هل أنت بخير؟

سألتها في مكالمة هاتفية جعلتها مهربي من القاعة، وفي الحقيقة كانت مهربي من عينيه، وخارطة هدوئه المغري.

ردت عليّ: بخير؟ وأردفت: أين أنت؟

ـ هنا «باية» يا أمي الحنون، أنا ما أزال في الوطن... وكدت أضيف شيئاً من شعري الذي لا تفهمه، وكدت أبكي لأنني لا أزال أحتال على نفسي في وقفة تذكرني بتعاسات أمي، ولأن الزمان احتال عليّ بهم رماني في واقع مفخخ بألغام الرجال...

وكدت أسألها:

ـ لماذا ورثت الضعف منك يا حبيبة؟

وكنت سأضع نفسي في قفص محاكمة لو سألتها فآثرت أن أسلك درباً أخرى في الكلام، أن أسرد عليها جديد نجاحاتي بحماسة، فتزغرد بروح البدوية التي تفرح لتميز ابنتها، وتهتف لها من مدينة كبرى يهددها الخوف واللاأمن، ولكنها منصة أولى للنجاح.

ـ كل الدعاء لك يا قرة العين...

ما روتني هذه الأم حليباً، ولكنها ما تزال ترويني بالدعاء.

ـ كوني شامخة حفظك الله

«كوني شامخة» هذا ما يمكن أن أسميه حنان القسوة، أو قسوة الحنان، هذا هو الشوك الذي يُغرس برفق في كياني، فأي شبر هذا الذي يحتويني ويتحمل مني مزيداً من الشموخ؟

عدت إلى القاعة و«شبري» المحدود يطوقني، و«باية» بعينيها الباكيتين عمراً مهدوراً في انتظار الفرج «غودو» تراقبني وصوتها المخدوش بصرخة لم تلفظها يحاصرني بدعوة عسكرية لتجنيد الجسد التواق للدفء، لحرب جديدة باردة.

عدت إلى القاعة، ولم يكن هروبي سوى احتماء بائس ببدرع ورقية سرعان ما احترقت مع لفافة سيجارته، وسرعان ما تبين لي أن الهروب سلاح فوهته مصوبة نحوي، وأن قمع الطبيعة في الذات يشبه ترك الصلاة، ولكن جلادي في الداخل كان أقوى، وقشعريرة الخوف نقشت على جسدي آثارها حين رفع عينيه فجأة وضبطني متلبسة بالتلصص على داخله، والتوغل في ذاك الأخضر الشاسع خلف نظارته.

ـ ويحي، بأية سحنة سأخرج من جلدي الذائب تحت وهج نظرته؟

تذكرت قول «باية» العريق «الحب حق رجالي وعاهة نسائية»

فهل تراه رأى عاهتي تتكون وراء ملامحي المبتسمة عنوة؟ أم تراني أتوهم فقط هذه العاهة الطارئة لأنني أدمنت على محتوى وعاءات البداوة التي تلاحقني حتى في أزقّى المآدب؟

بين الوهم والحقيقة التي أجهلها ضعت منكسة

العواطف في لقاء لن يدوم أكثر من ساعات في عمره، وأكثر من أطلال عمري الباكي سيدوم.

احترقت لفافته حتى آخرها، وجلسة ما بعد الغداء انتهت. وقف الحضور، وقف معهم، اختفى وسط الزحمة، غمرته، انطفأت القاعة، انسدلت ستائري على خشبة حلم جميل زرعني بطعم الأنوثة الجبار في خلق الحياة، واقتلع جذوري التي أفناها السبات تحت مفعول قضية أُقحمتُ فيها لأن العرف شاء، ولأن تقاليد (الرجولة) شاءت، ولأن أحكام «باية» شاءت ولأن القدر يحرص أن يكون للبعض نصيب من الكدر الدنيوي، ليهنأ البعض الآخر حين يقرأ عصارة الكدر على صفحات الجرائد اليومية...

غداً تنقل الجرائد تفاصيل مأدبة فاخرة لأناس هم (واجهة) المجتمع، الفواتير ستسقط سهواً، وبالمرة كل الحساسيات التي تملأ القلوب، وعيني، ونظراته المشحونة بالدهشة. أوجاعنا المغطاة، ستترجم بعدة وجهات نظر...

قد يتصفح إحدى هذه الصحف، وقد يتذكر آخر اعترافاتي المقتضبة له: «إنك وسيم جداً» على عجل

قلتها، على رغبة متقدة في البقاء أمامه، بالقدر الذي يشعرني بحقي كأنثى في امتلاك نواتي الانسانية، على دعابة رددتها «إنك وسيم جداً». لقاء بضع ساعات لا يمنحني شرعية اعترافات إضافية «إنك هادئ جداً» وهذا يثيرني، «متزن جداً» وهذا يشدني، «رائع جداً» فماذا عساني أقول أيضاً؟

إنك رجل جداً... وهذا يأسرني

رجل جداً، وجئتني متأخراً جداً بدفتر ملامحك الذي أُذاكره كل ليلة لأملأ فجوات عهد قطعته مع قضية أقوى مني، وأوهم نفسي أني أعاني أعراض خيانة ليس إلا.

ربما لن تستمر، وربما لن تزول...

قسنطينة-30 ديسمبر 94

أجساد... السادة

ـ سيدتي لقد تأخرتِ

وتأخرت السيدة لتسمع هذ التنبيه!

ما يقوله الخدم لا يسمع بسرعة هذه عادة، وحين سمعت ردت بلا مبالاة:

ـ اهتمي بشغلك ليس أكثر

الخدم لا يجب أن يهتموا بأكثر من شغلهم، الملاحظات ممنوعة وأصواتهم محظور أن تصعد إلى فوق.

كانت السيدة قلقة، مرتابة هذه الأيام في شيء ما يحاك ضدها في الكواليس وهذا ما جعل نومها يقل، ومواعيد عملها تضطرب، ويحر داخلها لا يستقر.

ما تحت عينيها يكاد يكون أزرق، إنها متعبة، متعبة جداً.

رددت الخادمة في نفسها:

ـ حرام!

وهي تسكب لها فنجان القهوة، وقبل أن تقدمه لها سألتها السيدة بصوت فيه نوع من الغضب:

ـ أين سجائري؟

تلعثمت الخادمة، انتفضت، ضاعت كلمات الاعتذار من لسانها، شعرت بشيء يشبه الذنب، ولكنها تشجعت في الأخير وقالت لها وهي تحني رأسها قليلاً، وتخفض عينيها في الاتجاه الآخر بعيداً عن السيدة:

ـ نبّه عليك الحكيم يا سيدتي...

تمطط طول السيدة، وازداد عرضها، وكبرت عيناها حتى تبينت فيهما ألسنة اللهب تعانق السماء وعلا صوتها كصوت الرعد:

ـ منذ متى صرت تفهمين ما يقوله الحكماء؟

الخدم لا يجب أن يفهموا ما يقوله الحكماء!

تصبّب كل مخ الخادمة عرقاً. الخدم يجب أن يظلوا بلا مخ. ولكنها رددت في نفسها مرة أخرى:

ـ حرام... حرام...

وقفزت كالأطفال إلى إحدى الخزائن، أخرجت علبة سجائر جديدة وولاعة، ووضعتهما أمام السيدة، ولم تنبس بكلمة بينما فمها لا يزال يقطر عرقاً حتى تبلل وجهها، وعنقها، وكاد صدرها يطاله البلل.

سحبت السيدة سيجارة أشعلتها، سحبت منها نفسها فهدأت وكأن شيئاً لم يحدث!

السادة يهدأون بسرعة حين تُلبّى رغباتهم، السادة مذهلون في سلوكهم!

تأملتها الخادمة واندهشت... هكذا هي في كل مرة تندهش، وفي كل مرة تنطفئ، وفي كل مرة تنسحب مسرورة لأن سيدتها هدأت

ـ أوف، مرت العاصفة (قالت في صمت)

كل ما تقوله، تقوله في صمت، وهكذا يجب أن تقوله دائماً. فتحت السيدة جريدتها وكادت أن ترتشف أول رشفة من فنجانها، ترددت قليلاً، وضعت فنجانها جانباً وقلبت أوراق جريدتها على غير مواضيع السياسة، هي الابنة المدللة لبيوت السياسة، لا حاجة لها لقراءة ما يكتبه جرذان الصحافة من

قصص. فتحت جريدتها على صفحة الفن لترى لمن زوجتها (السخافة الفنية) اليوم.

ها هي ذي ترشف رشفة من قهوتها، قبل أن تبدأ قراءة صفحتها المفضلة.

ثم ها هي ذي تعتدل فجأة في جلستها، وعيناها تجحظان شيئاً فشيئاً، وأنفاسها تتوقف، شيء ما يخاطبها من هذه الأوراق بخبر مهول.

رمت بالجريدة جانباً وأسرعت إلى الهاتف، اتصلت برقم أول، والصوت الذي ردّ عليها اعتذر لأن السيد غير موجود بالبيت. اتصلت برقم ثان، فرد صوت آخر يعتذر لأن السيد غير موجود بالبيت، وهكذا السادة، لا ندري بأي بيت يكونون.

تحركت أنفاسها كالعاصفة، زمجرت، صرخت، قذفت الزجاج بمنفضة، ولم تهدأ هذه المرة.

سارعت الخادمة إليها، ولكنها لم تعطها فرصة للسؤال، إذْ صرخت فيها:

- أغربي عن وجهي الآن.

اتصلت بأرقام عدة ولكنها لم تعثر على السيد،

كأية أنثى، شعرت بحاستها السادسة انه يهرب منها وهكذا كل الرجال حين تنتهي مصالحهم مع امرأة مثلها يهربون منها، الهروب طريقة الجبناء لمواصلة الحياة، فجأة تذكرت رقماً لسيد آخر.

اتصلت به وعرفت.

انهارت بعد أن عرفت.

قال لها السيد بكل أدب (أدب السادة في المواقف الحرجة).

ـ أنت فنانة عظيمة، وبلغت من الشهرة ما بلغت، لكن لكل مرحلة أدوارها.

انخفضت نبرة صوتها، صارت كنبرة أصوات الخادمات:

ـ يعني ما كُتب صحيح؟

قال: ليس كل ما يُكتب شائعات.

قالت: لكنني صديقته، وجميلة، وهذا الدور انتظرته طويلاً.

قال: أنت صديقة الجميع لا ننكر لك ذلك، لكن...

افهميني، مقاساتك لا تناسب المقاسات الجديدة للجمال.

قالت وهي تحاول أن تضبط أعصابها.

ـ لكن هذا الدور بالذات لا يتطلب أي اغراء.

قال متململاً بعض الشيء:

ـ أممم... ليس تماماً... لكن... يتطلب أنفاً صغيراً و...

قاطعته: سيصغر.

قال: وشفتين مكتنزتين.

قاطعته مرة أخرى:

ـ ستكتنزان

قال: وصدراً كبيراً، ضخم أقصد.

صرخت في وجهه.

ـ سيضخم، هل سبق وطلبتم شيئاً من قبل ولم أنفذه.

قال ببرود:

ـ وهل سيتحمل جسدك مزيداً من النحت؟

أغلق السماعة في وجهها. السادة ليس لهم وقت لسماع الصراخ.

انهارت دموعها وسقطت على الأرض، هرولت الخادمة اليها ولملمتها كما تلملم الأشياء المكسورة.

وحدهم الخدم يلملمون بقايا السادة عند الضرورة.

طلبت منها كأس ماء وقالت لها: أرجوك.

ناولتها الخادمة كأس الماء، وضربت كفاً بكف، ورددت بصوت خافت: حرام هذا الذي يحدث.

إنها لا تصدق أن السادة أيضاً ينهارون، استأذنت وعادت إلى المطبخ.

حاولت السيدة أن تغمض عينيها لكن المرآة غمزتها وقالت لها بخفوت:

ـ بشعة!

ـ المرآة لا يمكنها أن تنطق، هذا كابوس (صرخت) لكن المرآة قالت:

ـ بلا، أنت بشعة!

صرخت بهستيريا:

ـ أسكتوا هذه الشمطاء... أسكتوها... أسكتوها... أسكتوها...

لكن الشمطاء لا تسكت حين تجد الفرصة للحديث...

تهرول الخادمة إليها مرة أخرى، تحضنها، تذوب الفوارق بينهما؛ ها هما سيدتان، الواحدة تنجد الأخرى، ها هي دموع السيدة تتحول لدموع تنهمر على صدر خادمة، دموع الفجيعة لها دوماً نفس المذاق، ودفء الحنان له نفس المذاق حتى وإن كان في حضن خادمة.

بعد شهور من الغياب أطلت من على صفحات الجرائد بثوب طويل، ووشاح جميل، وفي إحداها كان التصريح في عنوان كبير:

ـ ها أنا ذي أسترجع ملكية جسدي، فالأجساد غير قابلة للنحت.

بيروت، 7 أوت 1996

جريمة حي الحياة

أقدام بأحذية رياضية خشنة كأنما نزلت من السماء، وأيادٍ كأنما هبطت من السماء أيضاً؛ الرؤوس لم يكن بمقدوري أن أتبين تقاسيمها. نطَّ الرجل الأول كالجني وصرع «خَدَّة»، وقد دوّى صراخه في الفراغ حتى خلت من صُراخه البنايات.

أغمضت عيني، كنت خائفاً، وصوت «خدة» أرعبني أكثر، ردد أكثر من مرة: «الله أكبر» فيما المسدسات الكاتمة للصوت تبصق عليه حممها الصغيرة القاتلة، وقبل أن يسقط تقدم منه الأسود الطويل وصوب له ضربة بمؤخرة سلاحه على الرأس بينما القصير كان أخف، قتل الثاني برصاصة واحدة في الصدر. جَرّدا الجثتين من أسلحتهما، ثم دلفا في عتمة الليل، ولم أعد أرى منهما غير ما أتخيله من جسميهما المتناقضين في الصفات، ووقع أقدامهما

يتلاشى في حجم المسافة المتسع. لم ينبس أحدهما ولو بـ «أح» صغيرة.

ولم تأخذ «زردة»[1] الأرواح هذه أكثر من خمس دقائق... أو لحظة...

أو غمضة عين...

ديك في إحدى الشرفات بدأ يصيح، اختلط عليه توقيت الفجر الذي اعتاده بتوقيت فجر المدن...

كنت أعرف أن أكثر من عين تراقب ما يحدث مثلي من خلف الشبابيك الموصدة، والأنوار التي تغط في النوم منذ وقت باكر، لكن الديك أوحى لي بصياحه أنني مكشوف فتراجعت قليلاً نحو الخلف، لعنت الديك، واغتظت من موسى الخياط فحتماً هو صاحبه، بلا أدنى شك، فأنا أكيد أن هذا القروي الخياط لا يمكنه أن يعيش في علبة معلقة فوق روائح الطبخ والسيارات والمجا...رير دون إحداث نشاز ما

---

(1) زردة: وليمة شعبية تقام عادة بأضرحة الأولياء الصالحين لا تخلو من الذبائح وما لذ من الأكل، وبعض الطقوس التي تشبه العبادة والتعبير هنا مجازي.

في نظام التعليب هذا عسى أن تهدأ قوارب حنينه من رميه بين الفترة والفترة على شواطئ الكآبة.

«موسى، يَاخِي زْهَرْ، يَاخِي، عمّي مْلِيخْ وزادلو لَهْوَا والريح»[2] قتل الحزن زوجته منذ أشهر بعد أن مات ابنهما الوحيد في انفجار استهدف الجامعة.

أيمكن للديك أن يسليه؟

أيمكن لصياحه الصباحي المتذبذب أن يعوضه ضجة الأهل ورائحة السكينة والفجر الذي لم يشهد أنات الموت منذ الاستقلال؟

«خدة» وعبد الكريم وخمس جثث ماتت برصاصهما ما يزالون نائمين في الشارع.

أنا وكل العيون الجبانة التي تحضر مشهد الموت، ما يزال المشهد يشدنا...

كنت أعرف نيات خدة وعبد الكريم.

---

(2) موسى، لا حظ له.
والبقية مثل جزائري يقصد به الإنسان المصاب بأكثر من مصيبة في وقت واحد.

كنت أعرف نياتهم لقتل الزائرين لنصرية وبناتها، كنت أعرف أن المجزرة حُدّد أوانها. كلنا كنا نعرف.

وقف «خدة» ـ الغائب عن الأنظار منذ مدة ـ على الدرج المقابل لبيتها وخطب بلغة آل قريش «إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها...» ومضى في التهديد والوعيد لها مباشرة ولزائريها الليليين، وختم: «اللهم أشهد أني بلغت... اللهم أشهد أني بلغت» ثم قفز بين الجموع واختفى.

سألني رجل كان واقفاً إلى جانبي يشهد مع الجمع ما يحدث: «من هذا، زياد بن أبيه، أم الحجاج بن يوسف؟».

تحرجني أسئلة المثقفين، تورطني في ارتباك لا آخر له، ورغم ذلك حاولت أن أجيبه بكل ما يمكن أن يكون إجابة كافية وواضحة:

ـ «إنه «خدة» ابن الحي، لكن لا تأخذ بكلامه، إنه تأثير الحشيش، لقد عودنا أكثر من مرة على مثل هذه المسرحية.

مسرحية؟

يا للعار... يا لله... عمى!

خمس جثث عواقب مسرحية بلغة آل قريش!

حين سمعت تصفيرتين من آخر الشارع، وكانت دفاتر حسابات المكتب أمامي قد ألهتني عن النوم، رميت نظري على الساعة ففوجئت بتأخر الوقت. كانت الواحدة وأربعاً وعشرين دقيقة بالضبط بعد منتصف الليل.

قمت إلى النافذة

وجه «خدة» ساطع تحت القمر كوجه هر أبيض وعبد الكريم ببنيته القوية وجسمه الرشيق كالغزال في مشيته.

التقيا عند مفرق العمارة 106.

وظلا واقفين.

قبل اليوم كانا يظهران في هذا الوقت لإلصاق بيانات الجماعة.

اليوم ها هما يطيلان الوقوف. ثم فجأة انفتح باب نصرية في الجهة المقابلة، فاندفعت ضبابة كثيفة إلى الخارج، وأنغام خفيفة لموسيقى «الراي»، ثم الواحد

تلو الآخر ظهر أربعة رجال، وقبل أن يَنْغلق بابها انطلق وابل من الرصاص من رشاش كان يمسكه عبد الكريم بينما ظل «خدة» واقفاً أبعد منه بقليل وهو يمسك بمسدس. وحين هدأ صوت الرشاش كان الأربعة جثثاً على الأرض، أما باب نصرية فظل مغلقاً، كأن الرجال لم يخرجوا من بيتها.

لكن صراخ رجل علا من زاوية ما.

لقد عرفته.

إنه صراخ «عَزُّو المهبول» لم يره أحد في الظلام وعلى ما يبدو كان نائماً وقد أفزعته طلقات الرشاش. قفز «خدة» نحوه، أمسكه من قفاه وصرخ فيه:

ـ إلى متى ستظل «تتبهدل» في دنياك أيها الوغد؟

كان «عزُّو» يرتجف ويبكي مردداً:

ـ «خَلّيني... خَلّيني...»[3]

لكنا خدة صوّب مسدسه نحو رأس «عزُّو» وأرداه هامداً برصاصة واحدة.

---

(3) خليني: اتركني، باللهجة الجزائرية.

عبد الكريم قتل رجال نصرية، «خذّة» قتل «عزّو» «المهبول»، وكلاهما قُتلا من طرف شخصين مجهولين. نصرية لم تفتح الباب، وكأن الأمر لا يعنيها بتاتاً. الديك يصيح في غير وقته...

ـ «آآه... خْلاَصْ... دُخْت... دُخْت

قالت قناة فرنسية تلفزيونية:

Massacre à Alger:

7 citoyens morts à la cité El-Hayet

la nuit dernière.

قالت الصحف الوطنية عن جريمة حي الحياة:

أغتيل خمسة مواطنين عُزّل، وعُثر على جثتين من المحكوم عليهم غيابياً بالسجن لقيامهم بأعمال تخريبية.

وصف بيان الجماعة المعلق بمسجد عقبة بن نافع جريمة حي الحياة باستشهاد اثنين من عناصر الجماعة بعد تصفية أربعة من الفاسقين الفاجرينو ونسب قتل «عزو» الدرويش لأيادٍ مجهولة.

وصف بيان مسجد خالد بن الوليد جريمة حي

الحياة بقتل ستة أشخاص من الطغاة، والسابع قتل خطأ (؟) وحكم على القاتل بصوم شهرين متتابعين كفارة، ودفع دية لأهل القتيل (؟)...

أما العيون التي رأت المشهد فلم تقل شيئاً.

العودة

عدت من سفري الطويل أخيراً... وتحررت من غربتي، أو بعد قليل سأتحرر منها، وأتأكد أنني غادرت المنفى الذي اخترته ذات يوم عن حب وقناعة (وعمى) ليكون مستقبل أيامي. كنت أفكر هل ستنتابني نوبة من الفرح المجنون تجعلني أنحني على أرضية المطار فأُقبلها؟ أم أن هذه تقليعة للزعماء والمشاهير فقط؟ أو ربما سأركض نحو موقف سيارات الأجرة أفرغ جيوبي لمن يوصلني في أقصر وقت إلى حيي الصغير؛ هناك سأتجرد من كل صور البشاعة التي تغطيني، هناك حتماً لن أجد سيدة (عربية) تجلس على الرصيف عارضة جسدها لمن يدفع أكثر لأنها لا تملك ثمن تذكرة العودة مع كل بضائعها المكدسة في مكان ما، وسأتنفس حصتي الكاملة هواءً نقياً غير الذي كنت أشمه خلسة وخجلاً من أفواه

خدشت كرامتي حتى النخاع.

خلال روتين عملي كثيراً ما أصادف السياح (أبناء العمومة) بأعينهم الزئبقية وهم يجردون الشوارع من وقارها، أذبل في لحظة حسرة لما أرى، أبتلع المُرّ الذي يجتاح فمي، وأغلق منافذ الاحتجاج على صوتي. في الأخير لست من ذوي إصلاح العالم، لست نبية مثلاً، ولا أملك خاتم سليمان... وقوتي لا تتعدى الوقوف طوال اليوم في محل السيد «پرنان».

ـ سأعود إلى الوطن يا سيد «پرنان» هكذا قلتها له، ليضع راتبي في يدي قبل نهاية الأسبوع، ابتسم وقال لي بنبرة ساخرة: tu me manqueras brunette الخبيث لم ينطق اسمي منذ عملت عنده مع أنه يعرف جيداً أن اسمي «فاطمة».

خيوط الذاكرة وتضاريس الأيام الوعرة تبدو لي كثيفة جداً فيما أشعر أن الطائرة معلقة في موضعها وترفض التقدم إلى أرض الوطن.

لم أعد أحتمل دقات الشوق وصخب زغاريد القلب حين مالت علي المضيفة هامسة:

ـ «مدام» اربطي حزامك رجاءً، ستحط الطائرة بعد دقائق.

بعد دقائق سأرتمي في حضن هذا الجافي، ومتعة الهبوط هذه تذكرني بالأراجيح التي تهزنا أيام الطفولة.

أبداً... يحضرني الماضي وكأن ما عشته في غربَتي امتحان صعب عن عشق الوطن، ها أنا أخرج منه متعبة، ومتخوفة من النتيجة...

ـ جئت لتمضية العطلة هنا؟

قالها سائق التاكسي ممزقاً لوحة أحلامي.

قلت: لا، عدت نهائياً...

ضحك ثم سكت برهة، خلته فيها نسيني، أو استثقل مواصلة الكلام معي، ولكنه فاجأني مرة أخرى.

ـ عودي من حيث أتيت، هذه البلد ليست للبشر

ـ أعوذ بالله منك (أجبته).

وقطبت حاجبي، ثم تأففت ليسكت، فحتماً لا يعرف الخوف المزمن الذي يسكن المفاصل ويشل أول

خطواتنا مع أول نظرة استنكار لوجودنا هناك.

لم يلاحظ تقطيبة حاجبيَّ، ولم يعن له تأففي شيئاً، ظل يثرثر فيما غمرتني الدموع وحيي القديم يتراءى لي من بعيد، ثم يقفز ليلتصق بأجفاني، مرتمياً على صدري، مزغرداً لقدومي، يعانقني بكل تفاصيل التغيير التي صبغته... وكل هؤلاء الأطفال... آه... كم هم جريئون أبناء بلدي، يتكاثرون كالأرانب، ربما لأن ساعات النوم عندنا تفوق ساعات اليقظة بالأضعاف. إنهم يملأون الطريق، وأنا أتنقل بينهم بصعوبة، أتسلق الدرج العتيق لبنايتنا، أفتح الباب الذي لا قفل له، فإذا بوالدتي أمامي، كأنما تعلم بقدومي، وقد هيأت نفسها لاحتضاني.

قبل اللحظة لم أعرف طعم دموع الأمهات، لكن ها أنا ذي أستحيل إلى دمعة من دموعها، وانصهر على صدرها الذي يفوح عطراً. ثم غبت وسط أطفال أخوتي، ونسائهم، وشعرت أن العرق يقطر من جسدي داكناً، مسموماً تفوح منه رائحة الكبت والغربة والشوق والألم والفرح معاً. وعلى سرير والدتي، استسلمت لعطرها مرة أخرى، ولطفولتي

التي باغتتني فجأة وهي تضغط على أصابعي والفردوس يخرج من فمها.

ـ سامحتك يا صغيرتي...

وكدت أنام للمرة الأولى بعد سنوات طوال لولا صوت تناهى الى سمعي يقول:

ـ هل ستبقى معنا رغم هذا الضيق؟

ـ تفرحون بما تحمله، ولا تفرحون بها؟

ـ نحن لا نقصد هذا يا خالة، لقد عاشت أكثر عمرها في فرنسا، وحتماً تغير طبعها، وطريقة تفكيرها فكيف ستحتمل «الميزيرية»(*) هنا؟

ثم يحتد النقاش ليرمي بي في قاع الحيرة، تتحرك البرودة في جسدي ببطء، ورائحة أمي تملأ رئتي وصوتها يناضل من أجلي، وأنا غائبة عن الوعي في ذهول يتخبط قلبي بين ضلوعي، والحلم يتشقق من كل الجهات، الأصوات تتداخل ببعضها، ترتفع، الحلم يتصدع، بكاء طفل يعلو، الحلم يتهاوى، السيد

(*) الميزيريّة: البؤس باللهجة الجزائرية.

«پرنان» بنظارته الصغيرة الدائرية يبتسم بخبث، ثم يضحك، ثم يقهقه، الحلم صار حطاماً، النوم يغادرني، التعب يحاصرني، رائحة أمي تلفحني بحرارة، إنها تنحني عليّ، تُخرج علكة من فمها وتسد بها أذنيّ...

سبتمبر 1991

الأرض تقرع أجراسها

الأرض تصرخ أوجاعها، وتبكي الربيع المقهور في ربوعها تبتلع السواد الذي تتقيأه القلوب، تبلع، وتبلع، وتتشبث بطعان السن أولئك الذين مارسوا معها الإخصاب ذات يوم. تتوسل بوجهها المجعد المنبئ بالفقر ممزقة التقاسيم مشدودة بين جود السماء وشح الرؤوس النعسانة التي اتبطح أصحابها في المقاهي الكثيرة جداً.

(مرة سألني أستاذ العربية: ما الشيء الذي نظل نفتخر به حتى الأبد؟ فقلت له ـ بكل براءة: كثر المقاهي وأبطال لعبة «الدومينو» ومعاكسة الفتيات... كلهم ضحكوا في الصف، حدجني بنظرة تأنيب وطلب مني (بلطف) أن أغادر الصف. ضحكت في سري لأن الأستاذ نفسه من الرواد الأوفياء لمقهى الحاج محمد العيد صهر «لاَلّة خْدِيوَجْ» جارتنا، يقرأ

الجريدة للفلاحين ولغير الفلاحين إلى أن تصبح كرشه ثقيلة بما أفرغه فيها من قهوة وشاي وخنجلان فيتحرك ببطء كالبط السمين نحو بيته وفي قرارة نفسه نوع من الاطمئنان لأنه قام بواجبه (التثقيفي) في ذلك اليوم، بينما يظل الباقون في المقهى يواصلون إحراق حناجرهم بلفائف الدخان، وأصواتهم تعلو حيناً وتخفت حيناً آخر حسب حماستهم مع هذه اللعبة:

ـ العبْ! العب يا سي عمار العب؟

ـ تفوه!

يبصقها الحاج موساوي بصوت فيه بحة، متكئاً على عصاه وقد أحناه العمر المحفوف بالتجارب، فيخيم السكون فجأة، وتتعلق العيون الخجلانة بهيكله الصامد المصقول بهزات الزمن، وهو واقف في مدخل المقهى

ـ واش القعدة مليحة؟

ـ ...؟!

ـ إيه! والحصاد وقتاش، نهار ينور الملح؟

ـ يا عمي موساوي، رانا نَسْتَنّاوْا «لوناما» تعطينا...

ـ تَسْتَنّاوْا القيامة تهزكم، واتهز الذرية انتاعكم

يقولها بغضب وبؤبؤ عينيه يتوقد ناراً ثم يسترسل:

ـ ديروا تْويزَة(*) تفرح بيكم الأرض، هَاذُوا سْنِينْ ماشفتُوشْ خْشِيشة خضراء، وهذا العام كِيجَاتْ الصَّابَة هَزِّيتُوا خْشُومْكُمْ وعلاَ...؟

وهنا وقف الربيع شاب في الثلاثينات شديد السمرة أزرق العينين حاد النظرة رمق الحاج موساوي بنظرة ثم صبَّ في أذنه بعض الكلمات:

ـ هذا أسبوع وأنت كالكلب الجائع تزعجنا بنباحك، أنا لست مستعداً أن أحترق تحت الشمس وحينما تعطينا «لوناما» آلة الحصاد، سأحصده وحدي كل هذا القمح الذي أثار الكلاب في رأسك.

الحاج موساوي عادة لا يعطي فرصة للصغار

(*) تويزة: تطوع تقليدي يتعاون فيه الأهل والجيران والأصدقاء لإنهاء عمل ما يتطلب أيادٍ عاملة كثيرة.

يستفزون، لذا خرج متعباً منهم، فيما صوت يلاحقه:

ـ العافية!(*) يا الشايب العافية!

من غير هذه الصراصير التي تقيم حفلتها في وهج القيظ ترافق غضبه، وهو يخترق السنابل البراقة كالذهب، متوغلاً في الحقل وأنفاسه تزداد سرعة وحرارة، تتبع خطواته المندفعة؛ وخيل إليه أنه يرى آلة الحصاد قادمة نحوه وأسلاك تحاصره، إنه الكابوس هذه المرة، أو أقصى التعب، فقد سقط أرضاً وقد تعثر في أطراف صورة وهمية، مسح عرقه واعتدل في جلسته ثم أخرج كيس «العرعار» من جيب سترته الداخلي وصنع لفافة بورق شفاف لم يحسن صقل جوانبها، لارتعاش أصابعه ونشاف لسانه من الريق. وضع اللفافة بين شفتيه وأخرج عود ثقاب أشعله بصعوبة، بقي ينظر إليه، ثم زاغت نظراته وسقط عود الثقاب مشتعلاً، سقط رأسه وأخذ يردد كلاماً كمن يهلوس، لكن اللحن هو هو، سكتت الصراصير وهبت الريح خفيفة تدندن معه لحنه القديم:

(*) العافية: السلام بلهجة بعض أهالي الشرق الجزائرية.

ـ جبهة التحرير أعطيناك عهداً
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا

نطق الشهادة، وانطفأ، وعوت النار من حوله قبل أن تلتهم غضب الأرض.

أكلت... أكلت، حتى ما عاد هناك غضب.

جويليه 1991

ليلة باردة، ليلة شوق

قبل أن أعرف بيروت، عرفتكِ أنتِ.

وبعد بيروت عرفتُ كل النساء. ثم لا أنكر أن بيروت في حد ذاتها شهرزاد خطيرة لا تبوح بكل شيء، ولا تتعرى بسهولة أمام إغراء الحب، حتى بعد عاشر لقاء بعد الألف بعشيقها. وهي تقول نصف الحقيقة والنصف الآخر تصنع منه مسلسلاً للمتابعة وتتعرى من حيث يرتوي النظر، ومن حيث يجتاح القحط والعطش كل الجسد.

ثم بيروت... كانت كل النساء إلى حين رن الهاتف وأنا أحتسي قدحي المتأخر ببار فندق البستان بيت مري.

قلت لنفسي:هذه ليلة بلا نساء، ما أروع الابتعاد عن المرأة أحياناً، ومجالسة السكينة، ومحادثة الروح.

ما أروع الغياب عن عيون تفضح فينا النزوات والجلوس أمام عيون الضوء في ليلة هادئة كهذه حيث البحر قد خلد للنوم، وبيروت كراقصة «باليه» محترفة تتمايل حوله، وقد تملكني الخوف من إقبال الفجر واقتراب الصباح حين رنّ هذا الهاتف المفاجئ في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

ابتسم «البارمان» لي وكأنه يعتذر عن هذه الرنة المفاجئة والمزعجة، رفع السماعة ورد. ودون قصد مني سمعته وهو يتكلم:

ـ . . . وأين تريدينني أن أكون؟

ـ . . .

ـ أنتِ نامي، وأنا سأوقظك حين أصل

ـ . . .

ـ أقسم لك، لا نساء هنا، ولا امرأة أخرى في انتظاري غيرك أنتِ.

ـ . . .

ـ بالتأكيد أحبك.

وحين أقفل الخط عاد وابتسم مرة أخرى، وقد علت الحمرة وجهه، وأنا فهمته، وتفهمت خجله ذاك أمام حضوري وذاك العتاب الأنثوي الذي لا يقاوم.

ما أفظع عتاب امرأة نحبها، ثم ما أفظع أن نبحث عن مبرر لإقناعها أننا ما نزال نحبها. تأملت «البارمان» وغمزته، ثم تطلعت حولي،للمكان فارغ إلاّ مني ومنه،وهو أمامي ضحية لوجودي.

ـ كم مرة في الأسبوع تتلقى عتاباً كهذا؟ سألته وأجابني كتلميذ مهذب :

ـ حسبْ!

ـ حسب ماذا؟ سألته

ـ حسب الشغل...

ـ يبدو أنني سببت لك ورطة هذه الليلة.

فأجاب بلباقة وقد اتسعت ابتسامته :

ـ إنها طبيعة عملي.

كنت الزبون الأخير منذ أكثر من ساعة.

ومنذ أكثر من ساعة كنت أصنع قلق حبيبته دون قصد. وكل ليلة هناك شخص يعيش نشوته في هذا المكان منفرداً، أو مع حبيبة، أو مع أصدقاء ويصنع القلق ذاته للمرأة ذاتها... مسكينة... تحرك في داخلي ذاك العتاب القديم، والذي كنت أعطي له مبرراً مشابهاً؛ «طبيعة عملي» ليتحول العتاب إلى روتين، ويتحول المبرر إلى روتين أيضاً، كسرتهو حين أحببت غيرك، وحين صرت أنسى «طبيعة عملي»، وأجلس إليها الساعات ثم أحببت غيرها هي الأخرى، ووجدت اللعبة ممتعة فيما تتعدد الوجوه والمبرر واحد. لكن الحق كله على بيروت!

فمن يرفض جمالهن هنا؟ ومن يغمض عينه أمامهن؟

نظرت إلى «البارمان» مرة أخرى وخاطبته:

ـ هل تحب عملك؟

ـ أجاب:

ـ يمكنك أن تسألني هل أحب هذا المكان؟ أو هل أحب تلك الأماكن التي تشبهه؟ أو هل أحب

بيروت وناسها؟ فكل شيء يشبه بعضه ما دمت قد دخلت دائرة الليل، وكل شيء متداخل في علاقاتي مع الآخرين، والحيز الصغير الذي أبحث عنه لنفسي لا أجده إلاّ في قلوب أتعبها البحث، تحط عندي هنا في بعض أواخر الليل.

هي هذه، دائرة الليل التي أعيشها في مبنى الجريدة ويعيشها هذا «البارمان» خلف البار.

ثم أن نحضر صفحات يقرأها الآخرون، أو نسكب كؤوساً لهم، يظل وجه الشبه بيننا كبيراً.

إننا نكتب ما يحررنا ويحرر الآخرين.

وهو يسكب ما يحرره ويحرر الآخرين.

قال «البارمان»: بعد الكأس الثانية. أرى حبيبتي في كل النساء وأستحضرها عبرهن، فغيابها يؤلمني أحياناً، وحين أعود إليها بعد هذه الخيانات البيضاء، أشعر أنها رأت كل شيء؛ غريبات هؤلاء النساء وكيف تخترق أحاسيسهن ثقوب المسافة...

فهل كنتُ أنا الآخر أستحضرك عبرهن؟ إنك ما تزالين في القلب فعلاً، وقد تمنيتك في كل امرأة

عـرفـتـهـا، فـي جـسـدهـا، أو فـي عـينيـهـا، أو فـي ابتسامتها، أو في كلامها وها أنت قوية الحضور اليوم دون موعد، ودون وجود أي امرأة معي.

معبأة باللوعة ذكراك اليوم، وكل ما فيك يمشي عكس تيار بيروت، وعكس تيار الليل، وأكاد أراك نوارة من نوار عباد الشمس، تهللين باشراق الشمس وتخبو حواسك حين تغيب.

قال «البارمان»: كثيراً ما فكرت بمغادرة بيروت أريد مدينة لا تجمع بين البعض على حساب البعض الآخر، ولكنني فشلت. ربما لأننا نُخلق من أجل مدن معينة، وأحداث معينة ومصائر معينة لا تتناسب في كثير من الأحيان مع الأغلبية. كالهذيان تحدثنا، وتأخرنا، وتخيلت نشوته في البوح توازي قلق حبيبته المنتظرة، وفرحي لاكتشاف عصب حبك موجوداً في ذاتي رغم جميلات بيروت، ورغم «طبيعة عملي».

رن الهاتف مرة أخرى، فغمزت «البارمان» وقلت له:

ـ دعـه يـرن، ولـنـغـادر، هـكـذا سـتـعـرف أنـك

بالطريق، وستطمئن بعد طول انتظار.

ثم شعرت أنه من الواجب أن أعتذر له، فاعتذرت عني وعن كل الذين تجرفهم الرغبة وتنسيهم الأنا مطالب الآخر.

وخرجت. أنا وهو، وكأننا أصدقاء منذ زمن بعيد جمعتنا رنة هاتف معاتبة حركت أوتار الذاكرة التي ازدادت اهتزازاً حين لفحني هواء الجبل البارد وذكرني بهواء الجسور، وقساوة «سيرتا»(*)، وغيابك البارد جداً، وربما هو مفعول ليلة بلا نساء، فلا يمكن أن نغازل امرأة في حضور امرأة أخرى، حتى وإن كان حضورها في الذاكرة، فلكأن الخطاب يأخذ عكسه إليها: «أنت جميلة، إذن فالأخرى ليست كذلك» ولهذا كثيراً ما أبعدتك، وكثيراً ما نسيتك، واليوم في هذا الخلاء لا أعرف إن كنت ستردين على هاتفي، وهل سأطفئ شوقي إليك بعتاب ساخن، كتلك العتابات التي تؤلفين ببلاغة.

كان «البارمان» قد انطلق بسيارته قبلي، وكنت

(*) سيرتا: الاسم القديم لقسنطينة.

أقف أمام سيارتي مع الريح، وتلفوني الخليوي بيدي أفكر بالضغط على الأزرار التي توصلني إليك، ولكني تراجعتُ فقد تكون هذه محاولة مني لإرضاء رغبة وإثارة جرح.

بيروت ربيع 97

رائحة الورق

فجأة أعادتني رائحة الأقلام والدفاتر والمحفظة المدرسية الجديدة التي اشتريتها لإبني نور إلى طفولتي، وتواطأ الجو الخريفي مع حنيني المفاجئ هذا ليفتح يومي على مشهد مضت عليه خمس وعشرون سنة.

خمسة وعشرون عطشاً وحرقة، وانثناءً تحت طي طفولة لم أتذوقها جيداً، أو لم أتذوق منها غير طعم الملابس الجديدة في كل عيد، وطعم الرائحة التي كنت أشمها في أدواتي المدرسية وطاولات الصف، وساحة المدرسة وجرس بداية ونهاية الدرس.

ها هي الرائحة قوية في دفاتر لم يغزها الحبر بعد، وفي أقلام لم يأكلها الاستهلاك، وفي أصابع ابني الصغيرة الشبيهة بأصابع طفولتي...

قبل أن أرتب الأشياء في محفظته دنوت منه وقَبّلْتُ

جبينه، وتذكرت أن جبينه فقط هو اللغة المسالمة الوحيدة التي لم تقمع شَفَتَيّ، وأنني استغنيت عن كل لغات الخطاب منذ أنجبته...

انحنيت مرة أخرى على فرحه العارم بأشيائه، وتناولت بريق عينيه كحقنة مخدرة...

في قعر الوعي، أريد استمرار انهماكي في النسيان، أريد مزيداً من الابتعاد عن رائحة الورق المستفزة لعصب الذاكرة...

ولكن بين وجهه وابتسامته، مسافة رهيبة من عنفوان تلك الطفولة...

ولون الشتاء الرمادي، كأنما فزع من حرارة لقاء الصور، فاشتد أكثر، وفجأة هطل المطر غزيراً، فصفقت الكفان الصغيرتان حبوراً، تماماً كما كنت أصفق، تماماً كما كنت أمتلئ حبوراً من هذا اللامرئي الذي يغير ألوان السماء، ويلعب بالشمس والسحب، ويرشنا بقطرات الماء ذات الرائحة الزكية...

في عينيه كنت أرى المطر الهادئ، والشوارع المطمئنة لوقع أقدام لم يصبها وباء الركض بعد.

وفي عينيه دائماً التقت الفصول الماطرة كلها، وطفت وجوه الطفولة وأصوات الملائكة...

ثم... كثير من الحنين لصفاء اللحظات...

كانت طفولتي غير طفولته...

فغير المطر، وغير رائحة الأقلام الجديدة، كانت البيوت تتقد سمرا، وكان السمر يتّقد بالحضور، وكان الليل والنهار شفافين كبركة ماء، ولا أتذكر أنني سمعت صوت الرصاص الاّ في التلفزيون ووالدتي مُهرولة نحوه تخفض صوته أو تطفئه وكانت تمنعنا أن نلعب «لعبة الحرب» فيما بيننا كأطفال، وأذكر مقولتها المتكررة تلك «الحرب لا يمكن أن تكون لعبة، فهي إما حرب أو إنذار لها»، لكن دون قصد منا تجيء الحرب المختبئة بيننا فيما بعد، وتتسلل إلى بيوتنا، وتأخذ مكاناً بين الأخوة والأصدقاء، وتفترش أحلامنا، لتبدأ كوابيسها الطويلة...

استمر سقوط المطر طيلة الطريق التي سلكناها معاً، وأمطرت ذاكرتي ما شاءت عليّ من جنونها، وحين بلغنا البيت، ورحت أرتبُ أشياء نور على

طاولته الصغيرة، نكزتني رائحة الورق مرة أخرى؛ فهكذا رتب الوالد أوراقي على مكتب صغير أهداني إياه حين عينت لأول مرة بجريدة مهمة، وهمس لي: «هذا مكتبك الأصلي، فالصحافة شخص ناضج وأناني، يستهلكك حتى وأنت في البيت»

فيما بعد عرفت أنها كذلك فعلاً، وأن كل الركض الذي أركضه في النهار، وما أحرره في مكتب الجريدة شيء يسير مما أحتاج إلى كتابته، فكنت أعود إلى البيت مساء، وأنسى تناول طعامي أحياناً، وأسقط على مكتبي كومة من الشوق، سرعان ما تبدأ حركات الغزل الرفيعة بيننا، وترتفع موسيقى التمرد في أذني وفي أصابعي، وتبرق ألعاب النار في عيني، ويثور جنوني... لم أكن أعرف الخوف بالقدر الذي عرفت فيه قوة والدي وهو يدفع بي نحو قمة الجرأة، لذلك كتبت، ولذلك رفضت، ولذلك لم أنحن أمام اللغة المضادة...

ولكنِ اللغة عُوضت بآلة الإبادة...

ولكن...

حينها أدركت أن الأقلام أدوات ضعيفة، فتوقفت عن المجابهة، وتحول مكتبي إلى مقبرة لقصص لا تنشر، وتحولت أوراقي إلى مناديل لدموعي...

كان الزملاء إما يسقطون موتى برصاص الغدر ويدفنون مع أقلامهم، وإما يحملون أقلامهم ويغادرون هذا السجن الكبير،

وإما... مثلي أنا... يصمتون!

ولهذا أنجبت نورا!

قال لي حكيمي مندهشاً ومهنئاً: استغرب كيف عشت لحظات المخاض دون أن أسمع منك صرخة أو حتى صوتاً، وأستغرب كيف أن آخر لحظة في الولادة قمعتِ ألمها، وكأن كل ما عشته من وجع كان شيئاً إرادياً.

كان سعيداً بامرأة بشجاعتي، وكان جاهلاً تماماً أنني حين تعلمت الصمت تحت وطأة الرعب، صار من الصعب عليّ الإقلاع مرة أخرى نحو عالم غادرته ولو بصرخة ولادة...

كان نور يتأملني، وأنا ألمس أشياءه، وأغيب عنه

في صور الذاكرة بعينين لم تعرفا حجز الدموع فمدّ يديه الصغيرتين نحو وجنتي وقطع الصمت الذي تسلل بيننا.

ـ ماما، لماذا تحظنين أشيائي وتبكين، إذا كان وجودها هنا يزعجك فأنا لا أريدها؟

انتبهت إلى أنني فعلاً كنت أحظنها، إلى أنني فعلاً كنت أبكي بشكل مخيف، وبقدر ما كان الموقف مخيفاً لطفلي، كان مضحكاً لي حينها، فضحكت، وأتممت ترتيب أشيائه وحين خرجت من غرفته كانت رائحة الشوق تملأني، وكانت ورقتان في يدي وقلم...

بيروت ربيع 97

فهرس

الاهداء 5

كلمة 7

الغول مات 11

كل شيء سيء إلى الآن 17

الحياة ليست جميلة فوق الشمس 25

أريدك امرأة لأحلامي 33

أريد نبياً 38

الحصار الذي يقتل الحب 47

لحظة لاختلاس الحب 51

رجل بالمجان 61

الخروج من زمن الموت 67

ما تبقى من مرحلة صراع 74
البناء على صفائح الملح 79
القردة تعود من كاليفورنيا 85
تمثال القلعة 92
زنقة المسامير 99
عشاء مؤجل 106
الرجل العشرون على الناصية 115
أعراض خيانة 120
أجساد. . . السادة 126
جريمة حي الحياة 134
العودة 142
الأرض تقرع أجراسها 148
ليلة باردة. . . ليلة شوق 153
رائحة الورق 161

فضيلة الفاروق كاتبة جزائرية مارست العمل الإذاعي في الجزائر، حيث كان لها برنامج أدبي، بعنوان «مرافىء الإبداع»؛ كان له صدى واسع. عملت في الصحافة المكتوبة منذ العام 1990، وتميزت بعمودها الأسبوعي «همسات أنثى»، في أسبوعية «الحياة» الجزائرية. نشرت العديد من القصص القصيرة والمقالات في الصحف الجزائرية والسورية واللبنانية. وهذه باكورة أعمالها.